حكايات الأشباح
الزئبق الأحمر

سلسلة حكايات الأشباح / ١- الزئبق الأحمر
علا بركات
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، اش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٩٧٥٩
I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٠٤-٣

حكايات الاشباح

(١)

الزئبق الأحمر

علا بركات

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

كل قصص الرعب التي أكتبها فيها جزء كبير جدًا من الحقيقة....

لكن المرعب حقًا هو إجابة هذا السؤال :

أي جزءٍ فيها الحقيقي؟

علا بركات

ola_barakat١@yahoo.com

إهداء

إلى من أعطتني ورقًا وقلمًا وقالت لي اكتبي ثم اشترت أول قصصي بخمسه قروش :

أمي

إلى من لايزال يندهش كلما قرأ كلماتي :

أبي

إلى من أعطاني أول جهاز كمبيوتر وقال لي اكتبي :

زوجي

إلى من أتمنى أن يكتبوا ويعبروا عما بداخلهم :

أولادي

إلى من نشر لي أول قصة دون أن يعرفني :

الأستاذ إيهاب الزلاقي

إلى من أعطى الفرصة للجميع لكي يكتبوا:

الأستاذ إبراهيم عيسي

محبتي كلها لكم

علا بركات

الجدران....الدامية..

هذه القصة ..تختلف عن كـل قـصص الرعـب الـتي عرفتموها من قبل ..لسبب بسيط ..ألها قصة حقيقية حدثت منذ فترة ..وما زالت كل الأطراف المشتركة فيها ..موجودة إلى الآن ..وأنا منهم..

حدثت هذه القصة منذ أكثر من سبعة وعشرين عامًا ..في بداية صيف عام ١٩٧٩ ..قبل نهاية العام الدراسي.

كنَّا وقتها في الصف الثالث الإعدادي ..في مدينة هادئـة بإحدى المحافظات ...بعيدًا عن القاهرة..

كانت المدرسة التي ندرس بها في الأصل ..سجنًا عـسكريًا بناه الإنجليز واستخدموه لتعذيب المسجونين السياسيين ..وكان يحيط بالسجن مساحة كبيرة من الأرض ..محاطة بسور ضـخم من الحديد ومن فوقه لافتة ممنوع الاقتراب بـاللغتين العربيـة والإنجليزية.

ثم بعد خروج الإنجليز من مصر تحولت الأرض المحيطة بالسجن إلى مبان وشوارع ومحلات.. أما مبنى السجن نفسه والذي كان مكونًا من دور واحد.. فقد أضيف له دور ثان وعدة مبان ملحقة وتحوَّل إلى ...مدرسة ..إعدادية.. للبنات!!.

مضى العامان الأول والثاني بسلام، وكنَّا ندرس في المبـاني الملحقة الجديدة، وفي العام الثالث.. كنَّا ندرس في المبنى القـديم

الأثري في الطابق السفلي الذي كانت أرضيته من الخشب الصلب الذي لم تؤثر فيه السنين.

كانت حجرة الدراسة تلك تقع في نهاية ممر طويل من الخشب.. على الجانب الأيمن من هذا الممر.. مجموعة من الفصول الدراسية المماثلة.. وعلى الجانب الأيسر.. سور خشبي يطل على حديقة داخلية واسعة، يحيط بها سور عال من الأحجار البيضاء الصلبة.. أما حجرتنا..فكانت تقع في نهاية الممر ولها شباك واحد على الحديقة الداخلية وعدة شبابيك على حوش المدرسة.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تفتح فيها هذه الحجرة للدراسة نظرًا لزيادة أعداد الطالبات عامًا بعد عام، فقد كانت هذه الحجرة تستخدم في السابق كمخزن للأدوات الدراسية مثل الكراسي والطاولات الدراسية..

كنَّا في بداية الصيف والامتحانات على الأبواب، وكنا نستعد لإنهاء المناهج الدراسية لأخذ إجازة أسبوعين للمراجعة قبل الامتحان.. وفي صباح يوم الأربعاء.. وبعد طابور الصباح.. دخلنا إلى الفصل كالعادة في انتظار مدرسة الحصة الأولى، لكننا وجدنا شيئًا لم يحدث أبدًا من قبل...

وجدنا الأرضية الخشبية وقد تكسرت بعنف في نهاية الحجرة خلف آخر طاولة دراسية في منتصف الحجرة.

كانت الأرضية تبدو وكأنها تكسرت بفعل أسنان هائلة..حادة ..مزقتها.. ابتلعت جزءًا كبيرًا منها.

كانت الفتحة الناتجة عن هذا التكسير كبيرة بدرجة تسمح بنزول عدة أشخاص مرة واحدة.. وأسفل هذه الفتحة.. كانت مفاجأة أخرى !!..

أسفل هذه الفتحة كانت حفرة عميقة لها قاع بعيد يكفي لابتلاع رجل شديد الطول مثل لاعبي كرة السلة.. وكان لها جدران من الحجر الأبيض، مثل الحجر المبني منه سور الحديقة الخلفية.. كانت الحفرة تبدو وكأنها جزءًا من سرداب طويل متشعب.. يمتد أسفل الفصل، وربما أسفل المدرسة، بل وربما أسفل المنطقة بأسرها.... وفي قاع الحفرة.. كانت بعض الأوراق المبعثرة.. لم نتبين أي شئ عنها، ولا بأي لغةٍ كُتبت..

وأعترف بأن شكل السرداب..كان مغريًا للغاية لكل واحدة منا لاستكشافه، خاصة في تلك السن الصغيرة المفعمة بالشباب والحيوية.

وقفنا جميعًا حول السرداب في دهشة ..كل واحدةٍ منا تتخيل ماذا يمكن أن يكون في الطرف المخفيِّ منه ..وإلى أين يؤدي ..وتبادلنا الحديث عن الكنوز الإنجليزية المدفونة

بالأسفل.. وتخيلنا المغامرة الشيقة التي يمكـــن أن نمـــر بهـــا في استكشاف هذا السرداب العجيب.

جاءت مُدرِّسة الحصة الأولى، ورأت ما حدث.. فأرســـلت لمديرة المدرسة.. التي تفحصت المكـــان جيـــدًا.. وقـــررت أن إصلاح تلك الفتحة من الممكن أن يؤجل لمدة شهر حتى تنتهي الامتحانات.. وتم التنبيه علينا بعدم الاقتراب من تلك الفتحـــة نهائيًا، حتى لا تنهار بنا الأرضية الخشبية المكسورة..

في صباح اليوم التالي... حدثت المفاجأة التي لم نتوقعهـــا.. قررت ثلاث فتيات خوض التجربة المثيرة..

"فقط لبضعة أمتار للأمام وللخلف .."

هكذا قالت إحدى الفتيات ..وأحضرن معهن كـــل شـــيء شمعٌ، وثقابٌ، وكشافٌ للإضاءة، وخيط صوف ليربطنه ببداية السرداب حتى يستطعن العودة مرة أخرى.

انقسمت الطالبات ما بين مشجعة ومعارضة ..البعض قلن.. إنها تجربة مثيرة لن تتكرر أبدًا ..وأن مـــا يمكـــن أن نجـــده في الأسفل سوف يصبح أشياء أثرية قيمة، يمكـــن بيعهـــا بمبـــالغ معقولة.. والبعض الآخر قلن.. إن المكان لم يفتح منـــذ فتـــرة طويلة ويمكن أن يكون الهواء ملوثًا أو موبـــوءًا بالحـــشرات أو القوارض أو حتى مسكونا بالعفاريت...

"ولكننا لم نر أية فئران في الحفرة أمس ؟.."

"ربما أكلتها العفاريت.."

وضحكنا جميعًا قبل انتهاء طابور الصباح ..ودخلنا الفصل.. وتحركت الفتيات فورًا قبل أن تشي بهن إحـــدانا إلى مُدرِّســـة الحصة الأولى، وحتى يتسنى لهن العـــودة قبـــل انتـــهاء اليـــوم الدراسي.

نزلت الفتيات إلى أرض الحفرة..بعد أن ربطن طرف الخيط في إحدى أخشاب الأرضية..وأشعلن الكشّاف ..وبعد عـــدة خطوات غبن عن أنظارنا..سائرات أسفل الأرضية الخـــشبية في اتجاه عكس اتجاه المدرسة، أي إلى الخارج أسفل الحديقة المغلقة.

انتفضت مُدرِّسة الحصة الأولى،كأنما لدغتها حيـــة، حينمـــا قالت لها بعض الفتيات ما حدث.. ضربت بيدها على صدرها بدهشة.. بُهِتَ لونها تمامًا وكأنها شاهدت شبحًا يُطِل عليها من تلك الفتحة التي وقفت تنظر إليها في ذهول..

أسرعت إلى المديرة لإحضارها.. وجاءت المديرة مـــسرعةً.. تلهث.. وحبات العرق تتناثر من وجهها..وصرخت فينا:

"ماذا تقولون؟ يا غبيات أليست فيكن واحدة لديها عقـــل؟ كيف تركتموهن يقمن بذلك ؟كيف حدث ذلـــك؟ كيـــف حدث ذلك؟"

كان جسدها يرتجف بعنف وهي تقترب من الفتحة في الأرضية.. وازداد ارتجافه عندما رأت الخيط المربوط في الأرضية الخشبية.

أرسَلَت في طلب فراش المدرسة بسرعة، وسألتنا عن عناوين منازل الفتيات الثلاثة.. كُنَّ جميعًا يسكنَّ بالقرب من المدرسة.. وبالتحديد خلف سور المدرسة..وربما كان هذا هو السبب في أنهن أردن رؤية ماذا يوجد تحت منازلهن.

أرسلت الفراش إلى ذويهن.. وأمرته بسرعة العودة.. وفي نفس الوقت.. طلبت من بعض الفتيات الانبطاح أرضًا ومحاولة النداء عليهن بصوت عال والنظر من خلال الفتحة.

حدث هذا كله فيما لا يزيد عن عشر دقائق.. لهذا كنا واثقين من أنهن لم يبتعدن كثيرًا عن الفصل.

أخذنا ننادي عليهن بأعلى صوت.. وكل عدة دقائق كانت المديرة تشير لنا أن نصمت ونرهف السمع عسى أن نسمع صوتًا.. أي صوت صادر عنهن.. ولكن بدون فائدة.

بعد حوالي نصف الساعة.. بدأ توافد أهالي الفتيات الثلاث.. جاءوا ملهوفين.. مذعورين.. وازداد خوفهم عندما شاهدوا بأعينهم الفتحة في الأرضية الخشبية.. وعندما لم يسمعوا أي صوت استجابة للنداءات المتتالية على بناتهم طلب

الآباء من الفراش أن يحضر لهم بعض الشمع والثقاب لكي يترلوا إلى أسفل ويتتبعوا الخيط وراء الفتيات.. وهنا حدثت مفاجئة مذهلة..

و كأن الحفرة سمعت ما قالوا وفهمته ..

سمعنا صوت فرقعه عالية.. وخرج من الحفرة ضوءٌ أبيض اللون.. يتبعه بعض الدخان والتراب.. وانقطع الخيط الذي يربطهن بنا.. وطار طرفه الحر في هواء الحجرة ..

ومع انقطاع الخيط.. بدا أن خيط الأمل في تتبع الفتيات وكأنه قد انقطع هو الآخر .. ولكن ما حدث جعل الآباء المذعورين.. يزدادون إصرارًا على الترول إلى أسفل والبحث عن بناقم.

وهكذا نزل إلى أسفل ثلاثة آباء، وفراش المدرسة في نفس الوقت الذي قامت فيه المديرة بإبلاغ الشرطة..

ذهب الرجال الأربعة في الاتجاه الذي كان الخيط مشدودًا ناحيته.. ولكن حدثت مفاجأة.. شَلّت تفكيرنا جميعًا..

بعد عدة أمتار.. سمعنا صوت الرجال وهم يصيحون بأن هناك حائط من الحجر يسد السرداب... حائطٌ مبنيٌ مستقيم وليس مجموعة من الأحجار من الممكن أن تكون قد سقطت فوق الفتيات...

وتضاربت الآراء.. أحد الرجال أخذ يدق بعنف على الحائط وينادي باسم ابنته... وآخر عاد إلى الفتحة وقال بأنهم يجب أن يسيروا في الاتجاه المضاد.. أما الثالث فكان من رأيه أن ينتظروا حضور الشرطة فقد يكون لديهم تفسير منطقي لما حـــدث، أو بعض الأدوات التي قد تساعدهم في استكشاف الأمر.

واتفق الآباء الثلاثة على الذهاب إلى الناحية الأخـــرى مـــن السرداب... حيث وجدوا الحائط الحجري في انتظارهم مـــرة أخرى... بعد بضعة أمتار أيضًا... وهكذا.. وقفوا عاجزين عن عمل أي شيء سوى الدق بعنف على كلا الحائطين والنـــداء بأسماء بناتهن.

ظل الحال كما هو لمدة ساعة ونصف أخرى ..لا صوت.. لا خبر عنهن.. وازداد التوتر والقلـــق.. لدرجـــة أن بعـــض الطالبات بدأن يفقدن أعصابهن.. انتابتهن حالات من البكـــاء والهستيريا.. فأمرت المديرة بإخلاء الفصل.. وذهبنا إلى حـــوش المدرسة مع التشديد على المدرسات المرافقات بعدم السماح لنا بالتحدث مع أي طالبة من أي فصل آخر عن الموضوع حتى لا ينتشر الخبر وتنتشر الهستيريا في باقي المدرسة..كذلك منعـــت حصص الألعاب والفسحة المدرسية.. ووقفنا في الخارج نشاهد ما يحدث من شبابيك الفصل..

وبعد قرابة الساعتين.. حضرت الشرطة.. وعندما علم الضابط بما حدث استدعى على الفور سيارات الإسعاف والمطافئ وعددًا آخر من جنود الشرطة..

بدأ الضابط في استجوابنا.. في الوقت الذي نزل فيه عدد من الجنود إلى الأسفل وراحوا يتفحصون جدران وأرضية السرداب جيدًا.. ثم قرر الضابط بعد أن اتصل برئيس الشرطة أن يزيل أجزاءً أخرى من أرضية الفصل..

أخذ الجنود يخرجون أثاث الفصل إلى الخارج.. ثم أخذوا يكسرون أجزاءً أخرى من الأرضية بطول الفصل بحيث يتتبعون السرداب.. لكن الأخشاب كانت قاسية لدرجة استدعت إحضار عدد من النجارين بأدواقم ..

استمر العمل قرابة الساعتين بلا فائدة..كان من الواضح أن الحائط الحجري يمتد أسفل أرضية الحجرة ليصنع أرضية أخري تحت الأرضية الخشبية وأنه ليس هناك سرداب.. سوي تلك الفتحة الممتدة في آخر الفصل .

بعد فترة طويلة من العمل الشاق... بدأنا نحن طالبات الفصل نشك في أن ما حدث قد حدث فعلاً... فلا يوجد أي تفسير منطقي لاختفاء ثلاث فتيات في جزء من سرداب يبلغ طوله عدة أمتار.. وليس له سوى مخرج واحد.

كان الضابط يبثُّ الصبر في قلوب الآباء والأمهات بأنه من الممكن وجود باب سري في الحائط الحجري انغلــق خلــف الفتيات ولابد أن نجده مثلما وجدنه..

وهكذا بدأ الجنود في محاولة تكسير الحائط بالمعاول... ولكن عندها حدثت مفاجأة مرعبة ..

ما أن بدءوا في تكسير الحائط حتى سمعنا جميعًا- على الرغم من أننا كنا خارج المبني- سمعنا صوت أنين مكتوم وألم يتزايــد مع ضربات المعاول... كاد الصوت يجمد الــدماء في عروقنــا جميعًا.. فتوقف الجنود عن التكسير.. وعندها.. توقف الصوت أيضًا..

ومع ذلك.. أمرهم الضابط بمضاعفة المجهــود في تكــسير الحائط الذي يبدو وكأنه لا يريد أن يبوح بسره لأحد..

أنضم الآباء المرعوبين إلى الجنود ..يحاولون بجنون تكــسير الحائط متجاهلين صوت الأنين المتزايد..حتى أذهلهم ما حدث..

فجأة.. وجدوا الدماء تسيل من الــشقوق الــتي أحدثتــها المعاول... وازداد في نفس الوقت صوت الأنين حتى كان أشبه بالصراخ.. وارتفع صوتنا مع صوت الأمهات الثلاثة بالبكاء من الرعب من هول الأصوات الصادرة من الحفرة ..

وهنا.. أمر الضابط بوقف التكسير.. فبدأ الصراخ يهدأ قليلا حتى تحول مرة أخرى إلى أنين مكتوم..

وتكرر نفس الشيء في كل مرة يحاول فيها الرجال تحطيم الجدار الحجري من أي جهة ..

لسنا ندري كيف تسرب الخبر في المدينة الصغيرة.. أو ربما أثار وجود سيارات الإسعاف والمطافئ والشرطة أمام مدرسة البنات مخاوف الأهالي فتجمعوا أمام باب المدرسة للاطمئنان علي بناقم... واضطرت المديرة إلى إعلان انتهاء اليوم الدراسي لكي ينصرف الأهالي مع بناقم.. لكن الضابط رفض أن يجعلنا ننصرف لأنه رأى ضرورة لإعادة استجوابنا مرات أخري ..

وجاء رئيس الشرطة.. ووكيل وزارة التربية والتعليم وسكرتير عام المحافظة.. واستمر الوضع هكذا عدة ساعات أخري حتى حلّ الليل.. وقرروا جميعًا الانتظار حتى الصباح للمحاولة من جديد، ونام الأهالي الثكلى في فصول المدرسة حتى الصباح.. وأخذ رئيس الشرطة الموافقة على إزالة المبني من أساسه عسى أن يجدوا أسفله ممرًا سريًا للسرداب.. وهكذا.. أحضروا العمال والمعدات وبدءوا العمل ليلاً ونهارًا لمدة أربعة أيام متتالية لم يغادر فيها أهالي الفتيات المكان حتى تمت إزالة الدور العلوي بالكامل ثم بدؤوا في إزالة حوائط الدور السفلي

لكنهم وجدوها جميعًا من نفس الحجر الصلب الذي يشبه تماما حوائط السرداب.. وكلما حاولوا تكسير أي جزء منه سالت منه الدماء، وانبعث صوت أنين مختلف عن الصوت الصادر من فصلنا..

سَرت شائعات في مدينتنا الصغيرة الهادئة بأن هذه ليست المرة الأولى التي يختفي فيها بعض الناس بداخل هذا المبنى، وبالذات في هذه الحجرة التي كانت مغلقة طوال السنوات الماضية وربما كان هذا هو السبب في انزعاج مديرة المدرسة في بادئ الأمر.

حتى عندما أزالوا الأرضية الخشبية عن كل الدور.. تكشفت أسفلها أرضية أخرى من نفس الأحجار.. وفشلت جميع المحاولات في هدم المبنى أو الوصول إلى باب سري يؤدي إلى السرداب .

وتسرب اليأس إلى قلوب الجميع ..على الرغم من أصوات الأنين التي نسمعها.. والتي بدأت تخفت تدريجيًا.. إلا أنها لم تنته تمامًا.

وبعد حوالي عشرة أيام.. قرر رئيس الشرطة إيقاف البحث عن الفتيات الثلاثة.. وقرر سكرتير عام المحافظة مع وكيل الوزارة إغلاق هذا المبنى تمامًا والاكتفاء بالمباني المشيدة حديثا بجواره كمدرسة للبنات..

وما يزال هذا هو الحال حتى الآن.. المدرسة موجودة والمبنى مغلق بحجة أنه آيل للسقوط.. ولكن من يقترب منه ويرهـــف السمع جيدًا يستطيع أن يسمع أصوات الأنين الخافتة ما زالــت تتردد في أنحاء المبنى.. ومازالت الدماء تسيل على الجدران كلما خدش هذه الجدران شيء.

الزئبق الأحمر

كان "عابد" يمشي في الطريق بثقة مفرطة.. و لم لا ؟؟ وهـــو في طريقه ليصبح من أصحاب الملايين.

بدأ الأمر معه بالصدفة البحتة.... عندما همس في أذنه أحـــد أصدقائه... بأن لديه شيئًا ثمينًا يهم بعض السائحين العــرب... الذين تربطه بهم علاقات قوية في الفندق ذو الأربعة نجوم الذي يعمل به بمدينة أسوان.. وقال له أن عمولته في هـــذه المــسألة سوف تصل لـــعدة ملايين من الجنيهات ..

وصل إلى الكافيتيريا التي اتفقا على المقابلة فيهـــا.. وجـــد صديقه قد سبقه إلى هناك مما أعطاه الإحساس بأن هذا الصديق متلهف على إنهاء هذا الأمر ..

في البداية.. لم يصَّرح له الصديق بطبيعـــة ذلـــك الـــشيء الثمين.. قال له:

" لا أستطيع أن أخبرك عن هذا الشيء.. لكني أريـــدك أن تبحث عن شخص تحس أن لديه أموالاً طائلة يمكن أن يـــدفعها لشرائه."

رد عليه قائلاً:

"وكيف أبحث عن مشترٍ لشيء أنا نفسي لا أعرف ما هو؟ لابد أن تخبرني عن طبيعة ما معك.... هل معك قطعة أثرية من أيام الفراعنة وتريد لها مشترٍ؟؟"

وبعد إلحاح كبير منه ومحاولة إقناع الصديق بأنه لن يستطيع مساعدته ما لم يصارحه.. قالها له بانفعال شديد ..:

"زئبقٌ أحمر .. معي خمسة جرامات كاملـــة مـــن الزئبـــق الأحمر.. أعطاها لي صديق لا يود أن يعرفه أحد لأبيعهـــا لـــه واقتسم ثمنها معه"

لم يفهم سر انفعاله الشديد..لم يفهم أصلاً مـــاهو الزئبـــق الأحمر ولا ماهي فائدته لأي شخص خاصة السائحين العرب..

قال له:

" ومن أين أتى هذا الصديق بهذا الزئبق.."

رد قائلاً:

" لقد وجده عندما كان ينقب أسفل منزله عن مقبرة أثرية.. وجدها بداخل المومياء التي كانت في المقبرة ."

سأل صديقه :

" وماهو الزئبق الأحمر ؟"

نظر له صديقه بحذر وشك.. وقال له :

" هل أنت جادٌ في سؤالك هذا.. أم أنك تريد نسبة أكبر من النسبة المتعارف عليها ؟؟؟"

أجاب :

" لا... أنا جاد في هذا السؤال... ماهو الزئبق الأحمر؟ لقد سمعت عنه وقرأت في شبكة الانترنت عن هذه المادة.. أليست هي المادة التي سمعنا عنها في الأفلام... والتي يسعى وراءها العجائز من الرجال لتعيد لهم قوتهم وشبابهم الضائع .

وما أهميته للناس.. وقد اخترع لنا العلم عشرات الأدوية التي تعيد الشباب والرجولة؟ أم أن للأمر علاقة بصناعة القنبلة النووية مثلاً؟ لو كان كذلك فإني أشك أن خمسة جرامات ستكفي لصنع قنبلة من أي حجم.."

وأخذ يضحك من الأمر.. لكنه فوجئ بتجهم صديقه بطريقه تدل على جدية الموضوع..

بدأ الأمر يتضح شيئًا فشيئًا مع توضيحات صديقه... اكتشف أنه لم يكن يعيش في هذا العالم الغامض المليء بالمتناقضات.. والذي كان على وشك دخوله من أوسع أبوابه .

قال صديقه :

" الزئبق الأحمر هو مادة لا علاقة لها بكل ما تقول.. إنما ماده أثمن ملايين المرات من ذلك... إن الجرام الواحد منها يباع بمليون دولار..؟"

رد بذهول:

" ماذا ؟ الجرام بمليون دولار.. لماذا ؟"

رد الصديق:

" إن ما سأقوله لك الآن شيء في غاية السرية.. لا يعرفه إلا عدد قليل من الناس في عصرنا الحالي.. وأهميته ترجع إلى أن كل دولار سيدفع في سبيل شراء هذه المادة سيعود إلى المشتري أضعافًا مضاعفة خلال فترة وجيزة .."

عندما لمح الصديق علامات الحيرة على وجهه قال له :

" أنت تعرف أن قدماء المصريين كانوا يحنّطون موتاهم ويدفنونهم.... ويدفنون معهم كلّ ما يتعلق بهم من أموال وأوانٍ وأشياء تساعدهم على الحياة في العالم الأخر .."

قال:

" هذه حقيقة معروفة لا يوجد فيها شيء جديد"

قال الصديق:

" نعم... ولكن كان القدماء يدفنون أيضًا مع الأغنياء والملوك أواني ذهبية وكنوز لا تقدر بالمال.. كيف تتوقع أنهم كانوا يحرسون تلك المقابر التي أقاموها لتعيش آلاف السنين..؟"

رد قائلاً :

" لا أعرف .. ربما كانوا يضعون عليها الحرّاس جيلاً بعد جيل "

قال الصديق:

" لا... لقد كانوا يضعون عليها حراسة أشد بكثير من حراسة البشر !!! كانوا يضعون عليها حراسة من الجن... أنت تعرف أن القدماء المصريين كانوا بارعين في التنجيم والسحر... وكانت لديهم معلومات لم يصل إليها البشر حتى هذه اللحظة... ومن ضمن هذه المعلومات... أنهم كانوا يعرفون كيف يسخرون الجن لفعل أشياء لا يمكن أن يقوم بها بشر .. "

سكت الصديق قليلا ليري رد فعل كلماته على صديقه.. ثم أكمل حديثه قائلاً:

" أنت تعرف أن الجنَّ يعمر لآلاف السنين.. وأن لديه المقدرة على الاختفاء عن عيون البشر... ولديه المقدرة على التجسد في أي شكل.... فإذا تم استخدامه بواسطة تعويذة ج لحراسة مكان ما فإنه يستطيع أن يحمي هذا المكان ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه مهما كان... إلا من يستطيع عكس تعويذة السحر التي غالبًا ما كان يضعها كبير كهنة المعبد الذي يقوم بتحنيط الجثة.. ولكن هل تعرف كيف كان يقوم الكاهن بعمل تعويذة لتسخير الجن لحراسة المقبرة تستمر آلاف السنين ولا يستطيع أحد أن يتغلب عليها بسهولة؟"

نظر إليه بشغف وقال:

" لا.. لا أعرف عن هذا الأمر شيئا."

رد الصديق :

" لقد كان الكاهن -والذي لابد أن يكون متمكنا جـــدًا في هذا الأمر؛ حتى لا يضر نفسه ومن حوله- كان يقوم بوسيلة ما بأسر أحد أفراد الجن.. ثم يقوم بحبسه داخل بعـــض جرامـــات ضئيلة من الزئبق الأحمر... ويضعه داخل زجاجـــة صـــغيرة لا تلفت النظر... موضوعة بعناية داخل طيَّات لفائف الكتان التي تلف بها الجثة المحنطة.. أو داخل تجويف فم الجثة وكان ذلـــك يكلف أهل الميت أموالاً طائلة... لهذا لم تكن تلـــك الطريقـــة تستخدم مع كل الموتى... فقط من يملكون المال الكافي لذلك.. وهذا هو سر ندرة مادة الزئبق الأحمر .. لأنها لم تكن موجودة في كل مقابر الفراعنة... بل فقط في مقابر الصفوة من الـــذين يملكون المال... لماذا كانوا في رأيك ينتظرون أربعين يومًا علـــى الميت مابين الوفاة والدفن..؟ "

قال بثقة زائفة:

"لأن هذه هي المدة المطلوبة لتحضير الميت وتكفينه بطريقـــه مناسبة للاحتفاظ به سليمًا أطول مدة ممكنة... وهكذا وصلتنا مومياوات عمرها أربعة آلاف عام"

قال الصديق :

" لا... ليس الأمر كذلك.. بل لأن هذه هي المـــدة الـــتي يحتاجها الكاهن حتى يقوم بعمل تعويذاته لاستدعاء الجن وأسره داخل تلك الزجاجة الموجود بها الزئبق الأحمر .."

سكت الصديق فترة من الوقت حتى يري رد الفعـــل علـــى وجه صديقه ثم قال :

" هل تعرف فائدة أسر هذا الفرد من الجن ووضعه داخـــل المقبرة ؟"

رد وهو يحس بأنه لا يعلم شيئًا على الإطلاق :

" لا.. ما هي الفائدة ؟"

أجاب الصديق :

" الفائدة.. أن باقي أفراد أسرة الجن يقومون بحراسة أسيرهم إلى الأبد في تلك الزجاجة الصغيرة... ومعها كل شيءٍ داخـــل المقبرة، بما في ذلك الكنوز والجثة وكل ما تحتويه المقبرة."

" هل سمعت يومًا عن لعنة الفراعنة؟"

رد قائلاً :

" بالطبع سمعت عنها ولكن معظم علماء الآثار كذبوها"

قال الصديق :

" كذبوها لأنها لم تكن موجودة في كل المقابر التي فتحوها.. كانت موجودة فقط في مقابر الملوك والعظماء مثل مقبرة توت عنخ آمون.. إن لعنة الفراعنة.. هي وجود مئات من أفراد الجن تحرس المقبرة.. ينتظرون ليعرفوا إذا ما كان مقتحمي المقبرة يستطيعون تحرير أسيرهم بتعويذة مضادة أم لا، فإذا لم يستطيعوا ذلك قام أحد أفراد الجن بتعقب كل فرد دخل المقبرة حتى لو ذهب إلى بلاده في آخر العالم.. ومن هنا كانت الظروف الغريبة التي توفي فيها كل من دخل مقبرة توت عنخ آمون، بما في ذلك الكلب الخاص هوارد كارتر مكتشف المقبرة.. الجميع مات في ظروف غامضة وفي توقيتات متقاربة.. وبدون أي تفسير.. أتعلم لماذا؟ لأن الجن تعقبهم إلى حيث استطاع القضاء عليهم بعد أن تأكد أنهم لن يستطيعوا إعادة أسيرهم ولا فك أسره.. وبعد أن تأكدوا من أنهم لا يعرفون أي تعويذة مضادة لتعويذة الكاهن الذي قام بأسر أحد أفراد أسرتهم .."

عقدت الدهشة لسانه.. ولأول مره بدأ عقله يعمل ويفكر في جدية هذا الأمر.. إن الكلام الذي يسمعه كلام منطقي من الممكن تصديقه.. ولم لا فالفراعنة قد توصلوا إلى أسرار لم يتوصل إليها علماء القرن الواحد والعشرين بعد.. ربما لأن الفراعنة كانوا يتعاملون مع عالم آخر، غير العالم المادي الذي يتعامل معه علماء القرن الحالي... لم نسمع قط عن عالم

يتحدث عن قدرة الجن على عمل أي شـــيء، بـــل إن العلـــم الحديث يرفض تصديق وجود أشياء غير منظورة قـــادرة علـــي التفكير والحركة ولها حياة مثلنا.. قال لصديقه:

" ولكن الزئبق الأحمر معروف عالميًا... وهو مـــادة مخلّقـــة حديثة تستخدم في صناعة القنبلة النووية .."

أخذ يفكر في كل الأبحاث التي قرأ عنـــها في الكتـــب وفي الانترنت.. وتتحدث جميعها عن مادة الزئبـــق الأحمـــر الـــتي تستخدم في صناعة القنابل النووية.

انتبه على صوت صديقه وهو يستأنف حديثه ويقول له :

" لا هذا كلام غير دقيق.. إن الزئبق الأحمر الذي نتحـــدث عنه يختلف تمامًا عن كل المواد الموجدة في العالم سواء طبيعية أو صناعية.. تختلف اختلافًا وحيدًا جوهريًا لا يمكن لأحـــد غـــير خبير بهذا الأمر أن يعرفه.. "

قال بلهفة:

" وماهو هذا الاختلاف؟"

رد الصديق :

" ببساطة أن الزئبق الأحمر سائل حي ... "

قال بدهشة كبيرة :

" ماذا؟ ما معنى سائل حي..؟"

رد الصديق :

" هناك اختبار يقوم به من يعرف طبيعة هذه المادة.. ليعرف هل الزئبق الموجود بالزجاجة أصلي أم مخلّق.. ويمكن للإنسان العادي أن يرى الزئبق الأحمر ينبض إذا نظر إلى الزجاجة بتركيز في ضوء القمر ليلة تمامه"

أحس "عابد" بسخونة شديدة في فروة رأسه.. كأن الدماء المندفعة إلى رأسه وصلت إلى درجه الغليان.. كان يسمع هذا الكلام لأول مرة..على الرغم من كل الكتب التي قرأها في حياته.. لم يقرأ أبدًا عن هذا الأمر في أي كتاب..

وكأن صديقه قرأ ما يجول بخاطره.. فقال له :

" ماذا ؟؟ هل فاجأك كلامي ؟؟"

رد عابد :

" نعم.. لا أجد ما أرد به عليك.. ولكن إذا كان الأمر كذلك.. فلماذا يوافق الجن على دخول أي شخص إلى داخل المقبرة ؟"

رد الصديق:

" لأنهم كما قلت لك يعتقدون أن أي شخص من الممكـــن أن يعرف التعويذة التي تطلق أسيرهم... ولكن عندما يتأكدون من عجزه عن ذلك فإنهم ببساطة يقتلونه"

قال عابد:

" وما فائدة الزئبق الأحمر للإنسان إذا كـــان وراءه المـــوت المحقق ؟"

رد الصديق :

" إذا وقعت هذه المادة بين يدي شخص يعـــرف التعويـــذة المعاكسة.. أو له صلة بأحد يعرف هذه التعويذة فإنه يطلب من الجن المصاحب للزجاجة أن يفدوا أسيرهم.. بـــأي كـــم مـــن الأموال.. التي – من كثرتها– تنهمر علي رؤوس الموجودين في الجلسة.. بلا انقطاع "

قال عابد:

" ولكن ماذا يحدث إذا لم يتمكن الشخص من فك الأســـير أو مثلا كسرت الزجاجة أو فتحت دون تلاوة التعويذة المضادة عليها..؟"

رد الصديق :

" في هذه الحالة يموت الأسير ويضيع انتظار عائلته من الجن لآلاف السنين هباء... وهنا لابد وأن يكون انتقامهم من البشر كبيرًا "

قال له عابد :

" ولماذا لا تستفيد أنت من هذا الزئبق الأحمر فتجعل الجن يأتي لك بالأموال الطائلة التي تريدها بدلاً من بيعه لشخص آخر؟"

رد الصديق :

" كنت أتمنى هذا ولكن المشكلة أني لا أعرف التعويذة الملائمة لتحرير الأسير.. ولا أعرف أحدًا يعرفها"

رد عابد:

"وإذا وجدنا أحدًا يعرف هذه التعويذة ألا يكون من الأفضل لنا أن نأخذ هذا المال ؟"

رد الصديق :

" بالطبع أفضل لنا أن نأخذ هذا المال ولكن هل تعرف أنت أحد الشيوخ؟"

تذكَّر عابد أحد ضيوف الفندق، وأخبره عنه..كان شيخًا مغربيًا واضح من هيئته أنه يعمل في هذا المجال .

استمر حديثهم فترة طويلة واتفقا على انتظار هذا الشيخ الذي كان يأتي في أوقات متقاربة ومحاولة فتح الموضوع معه على أمل أن يسألهم عن هذا الأمر فيساوموه عليه إذا كان يشتريه أو يساعدهم في تحرير الجن وأخذ المزيد من المال ..

بعد عدة أيام اتصل عابد بصديقه مهللاً ..:

" لقد أتى.. أخيرًا أتى.. تعال بسرعة حتى نتحدث معه."

جاء الصديق بسرعة واتصلا بالشيخ وأخذا معه موعدًا لأمر هام.. وفي مطعم الفندق.. جلس الثلاثة يشربون الشاي الأسود الصعيدي وهم يتحدثون بحذر .

قدَّم عابد صديقه وأخذ يسأله عن طبيعة عمله متعللاً بأنه يبحث عن شيخ يعرف كيفيه إخراج الجن من أجساد البشر.. لأن لدى صديقه أخت قد لبسها أحد الجن وأنهم على استعداد لدفع أي مبلغ من المال يطلبه الشيخ.

لكن الشيخ أحس من كلامهما أنهما يريدان أن يقولا شيئًا آخر غير ذلك، فسألهما فجأة:

" ماذا لديكما تريدان عرضه علي؟ "

همت عابد وصديقه ثم همس عابد بهدوء:

" زئبقٌ أحمر .. هل تعرفه ؟"

أجاب الشيخ :

" بالطبع كم جرامًا لديكما؟ "

أجاب عابد :

" خمس جرامات "

رد الشيخ :

" أريد أن أكشف عليها .."

قال الصديق:

" ليس قبل أن نتفق على السعر .."

قال الشيخ :

" السعر معروف الجرام مليون أخضر .."

قال عابد :

" ولكن ألا يمكن أن نستفيد نحن من الزئبق ونأخذ الأموال لأنفسنا نحن الثلاثة ؟"

رد الشيخ :

" لا .. أنا غير مسموح لي أن آخذ من هذه الأموال شيئًا أنا الوسيط.. والوسيط إذا أخذ من المال فان المال يتحول بين يديه

إلى مجرد أوراق بيضاء لا قيمة لها.. إذا استطعتم أن تعطوني مليوني دولار فإني سوف آتي لكما بالمال الذي تريدانه.."

ثم أضاف :

" وهناك أيضًا مصاريف أخرى لازمة لهذا الأمر.. لأن الجن مخادع.. يأتي بالمال في صوره أوراق سوداء غير قابلة للاستخدام.. حتى يتم فك الأسير.. ويلزم لإعادة المال إلى صورته نوع معين من الزيت يسمي الزيت المبارك.. وهو غير موجود إلا في إيران فقط، ولا أحد في العالم يعلم طبيعة هذا الزيت ولا مم يصنع.. كل ما نعرفه أنه زيت نادر يتم القراءة عليه بآيات معينه غير موجودة في مصحف عثمان الذي يستخدمه المسلمين في جميع أنحاء العالم بل بآيات من مصحف السيدة فاطمة غير معروفة سوى لعدد قليل من أفراد الشيعة.. وهذه هي الطريقة الوحيدة لإعادة المال إلى حالته الطبيعية حتى يستفيد منه البشر.. وهذه القراءة تتم أثناء استخراج الجن من الزئبق.. حتى تحضر بعض أفراد الملائكة لتضع حدًا لألاعيب الجن معنا فلا يأخذون أموالهم مرة أخري ويؤذوننا بعد أن نخرج لهم أسيرهم.. وهذا الزيت سوف يتكلف عدة ملايين من الدولارات أيضا .."

صمت الصديقان وهما يفكران بالأمر.. لقد جعل الشيخ استفادهم المباشرة من الزئبق الأحمر مستحيلة.. لكنهما في نفس

الوقت عرفا أن من سيشتري هذا الزئبق سوف يحصل على أموال أكبر بكثير من المبلغ الكبير الذي جاء ذكره في الحديث..

" ما كل هذه الملايين من الدولارات التي تحدث عنها؟.. وكم سيأخذ الذي سيستفيد من الزئبق إذن..؟ وإذا كان هناك شخص لديه كل هذه الملايين من الدولارات فلماذا يرغب في المزيد إذن من عمليه خطرة بل وشديدة الخطورة مثل هذه؟"

كل هذه الأسئلة راحا يتحدثان في إجابتها وهما في طريقهما إلى حجرة الشيخ لمقابلته للمرة الثانية لإعطائه الزئبق وأخذ المال..

لقد طلبا منه أن يعطيهما المال مرة واحدة حتى لا تشك فيهما الشرطة.. من أين لهما هذا المبلغ الكبير.. واتفقا على اللقاء في حجرة الشيخ في الطابق الحادي عشر في الفندق ذا النجوم الأربعة في مدينة أسوان.. في الليلة التي يتم فيها البدر حتى يستطيع أن يتأكد من صحة الزئبق الموجود معهما وأنه فعلاً حي ينبض.

في الموعد المحدد توجه الصديقان إلى هناك وهما يمنيان النفس بالمال والثروة والمستقبل الذي لا مثيل له.. ولم لا والمادة التي تجلب المال في أيديهما والشيخ ينتظر.. بينما جلس صديقهما

الثالث والذي وجد الزئبق في المومياء التي كانت أسفل مترله في مقهي قريب من الفندق في انتظار نتيجه المقابلة.

عند وصولهما وجداه ينتظرهما..

قدم لهما بعض العصير الذي أخرجه من ثلاجـــة الفنـــدق.. وفتحه أمامهما..

وبعد أن شرب الثلاثة العصير.... أخذ منـــهما الزجاجـــة الشفافة ومسحها بعناية بسائل لزج أخضر اللون.. وأخذ يردد بعض الكلمات الغامضة عليها وهو يديرها عكـــس عقـــارب الساعة سبع مرات ثم في اتجاه عقارب الساعة سبع مـــرات.. ثم وقف أمام النافذة وأخذ يحدق فيها في حين قام كلا من عابـــد وصديقه ليقفا خلفه.. ليشاهدا ماذا يرى.

وعقدت الدهشة ألسنتهما حينما وجـــدا الـــسائل الأحمـــر السميك الموجود في الزجاجة يتكوَّر على نفسه مثل كرة صغيرة من المطاط ويبدأ في النبض مثل قلب صغير وهو يتوهج بلـــون أحمر داكن لم يشاهدا له مثيلاً من قبل.

قال عابد بصوت لاهث متقطع الأنفاس :

" ما.... ما الذي يحدث فيه؟"

رد الشيخ وهو يبتسم ابتسامه خبيثة :

" نعم.. نعم.. هذا أصلي.. هذا الزئبق حي.. ومن كميّته أستطيع أن أقول إن الجن الأسير فيه أحد كبار أسرته.. إن الجن سوف يدفع مبالغًا طائلة في أسيرهم هـذا.. وسـوف تكـون عمولتي منها كبيرة جدًا "

ثم أطلق الشيخ ضحكة شيطانية وهو يكمل حديثه قائلاً:

" ولكن للأسف لن أسمح لهاويين مثلكما بمشاركتي في هذه العمولة"

هنا أدرك عابد الفخ الذي وقعا فيه ..حين بدأت رأسه تدور وأحس أنه على وشك السقوط على أرض الغرفة .. عـرف أن الشيخ قد دس لهما المخدر في العصير الذي خدعهما به..

نظر إلى صديقه فوجده يهز رأسه يمينًا وشمالاً بطريقة مـثيرة للشفقة كأنه غير مصدق لما يحدث ..

هجم عابد على الشيخ ليأخذ منه الزجاجة.. لكنه لم يقـدِّر المسافة بينه وبين الشيخ لإحساسه بالدوار.. كان الشيخ مازال يتأمل في الزجاجة بإعجاب رافعًا إياها علـى ضـوء القمـر.. سقطت الزجاجة على أرض الحجرة محدثة دويًا عاليًـا نتيجـة انكسارها.. نظر الشيخ إلى الزجاجة بفزع وصدرت منه صرخة رعب عالية... تضاعف صداها في رأس الصديقين المخـدرين.. نظر الجميع برعب إلى السائل الأحمر السميك الذي كان ينبض

منذ لحظات بين يدي الشيخ.. والآن بدأ يزحف ببطء على الأرض... ويتفتت إلى مئات النقط الصغيرة التي تجري في كل مكان وهي تتبخر إلى الهواء.. بعد عدة لحظات كان مكان كل نقطة حمراء يقف رجل شديد الضخامة شديد سواد اللون.. كثيف الشعر كأنه شيطان.. كانوا جميعًا ينظرون إلى البشر الثلاثة الذين تسببوا في فقدانهم لأسيرهم..كانوا ينظرون إليهم نظرات مرعبة.. تجمَّد لها الدم في عروقهم.. نفخ أحدهم بصوت مسموع نفخة واحدة في الحجرة التي تحولت إلى كتلة من النار تحيط بهم جميعًا.. فتح عابد فمه ليصرخ لكنه لم يجد صوته ليستغيث..

أتت النيران على الفندق بأكمله... ليلة كاملة حاول جنود المطافئ فيها السيطرة علي النيران دون فائدة.. كانت النيران كأنها تحاورهم كلما أخمدوها في مكان عادت واشتعلت فيه من جديد.. وكأنها مصممة على تدمير المكان بأكمله.

ومن الغريب أن هناك شخص آخر احترق في تلك الليلة أيضًا دون أي سبب واضح .. اتضح فيما بعد أنه صديق لأحد ضحايا الحادث لكن الغريب في الأمر أنه كان يجلس في أحد المقاهي وحده، عندما اشتعلت النيران فيه فجأة دون سبب... وحاول رواد المقهى إخماد النيران لكنها لم تكن نيرانًا عادية بل كأنها ترفض أن تخمد .. استمرت مشتعلة فيه حتى تفحم تمامًا!!

في تقرير المعمل الجنائي.. تم تحديد مصدر النيران من الـدور الحادي عشر وتحديدًا من حجرة أحد الشيوخ المغاربة.. لكن لم يتم تحديد السبب وراء الحريق هل هو ماس كهربائي أم سـائل حارق أم انفجار موقد؟!!.. ل

لم يكن أي شيء معروفًا على الإطلاق.. لكن النتيجـة أن هناك خسائر بشرية كبيرة وخسائر مادية أكبر.. ولكن كيـف كانت الشرطة ستعرف ما حدث ؟

النّاهة !!!!

" الكل يعلم أن تلك المنطقة خطره .."

" نعم كل عدة أيام ننتشل منها غريقًا.."

" ومهما قلنا للشباب هذا لا يتعظون .."

" بل قل لا يكفون عن النزول إلى الترعة في هـــذه المنطقـــة بالذات.."

" لماذا لا يختارون منطقة غيرها ليـــستحموا أو ليـــصطادوا فيها؟"..

" بل قل لماذا يختارون هذا الوقت المتأخر من الليل للنزول إلى الترعة ؟ "

كان هذا جزءًا مما سمعه وهو يقف في انتظار استخراج جثة ابنه الذي غرق في الترعة في الليلة الماضية.

كان يجلس في منزله قبل خروجه إلى عمله بساعة أو أكثر.. ينهشه القلق على ابنه الذي تفقده في فراشه وهو يصلي الفجر.. فلم يجده.. أخذ يسأل نفسه.. أين يمكن أن يكـــون في هـــذه الساعة المتأخرة من الليل.. أخذ قلبه يحدثه بأن هناك شيء مـــا خطأ.. حتى جاءه الخبر المشئوم .

أسرع إلى المكان الذي يعرفه كل أهل القرية .. ذلك المكان الذي يشهد فعلاً كل عدة أيام غرق أحد شباب القرية..

" لكنه لم يكن مثل هؤلاء.."

قالها في حزن عميق وهو ينظر إلى جثة ابنه ممدة في الطريق في انتظار الشرطة... بينما الدموع ترفض أن تخرج من عينيه .

" لم يكن مثل هؤلاء.. مستهترًا بحياته!.."

نظروا إليه بأسى.. وأخذ كل واحد منهم يواسيه بكلمات ليس لها أي معنى.. كلمات عن الصبر وقوة الإيمان والعزيمة والقدر والمكتوب.. كانت كلها كلمات جوفاء طالما قالها لأناس مثله فقدوا أعز ما يملكون من الدنيا.. فلذات أكبادهم .. لكنه لم يكن يعرف أن تلك الكلمات جوفاء لا معنى لها إلا عندما سمعها اليوم..

مضى اليوم وتمت إجراءات الدفن بسهولة.. فقد اعتاد عليها الجميع.. الشرطة لم تسأل كثيرًا عن أسباب الحادث.. ربما سألت فيما مضى.. لكن مع تكرار الحادث.. لم يعد هناك داعي للسؤال.. لأن الإجابة دائمًا واحدة.

" لا أحد يعرف على وجه التحديد ما الذي دفع هؤلاء الشباب إلى النزول إلى الترعة في هذا الوقت المتأخر من الليل ..

ولا لماذا غرقوا بهذه الطريقة الغريبة.. رغم أنهم يجيدون السباحة تمامًا "

وجاء تقرير الطبيب الشرعي خاليًا من أي إجابة على أي سؤال.. فالجسد ليس به ما يدل على أن القتيل مات قبل نزوله إلى الترعة.. والجسد متيبس كأنه قد مات صعقًا بالكهرباء وليس غرقًا.. والدماء في جسده متجمدة كأنها تجمدت من الخوف قبل نزوله إلى الترعة.. مثل جميع من سبقه من القتلى بنفس الطريقه وفي نفس المكان.

بعد انتهاء أيام العزاء.. انفض الناس من حوله فأعطاه ذلك الفرصة ليعيد التفكير فيما حدث..

بدأ الأمر منذ حوالي الشهر.. لاحظ على الابن الشرود وعلامات الحيرة والحزن.. وعندما سأله.. لم يجد عنده إجابة بل قال له إنه بخير.

لكنه لاحظ أنه منطو على نفسه، ويقضي ساعات طويلة بغرفته مغلقًا بابها على نفسه يكتب.. ويكتب.. ويكتب..

" نعم لقد كان يكتب طوال الوقت.. لابد أن أرى ماذا كان يكتب.."

ذهب إلى حجرته.. للمرة الأولى منذ الحادث.. تردد وهو يضع يده على مقبض الباب.. سيدخلها ولا يجده.. لن يجده

فيها أبدًا بعد الآن.. انحدرت دموعه لكنه لم يكن يريد لأحد من الأسرة رؤيتها خاصة الأم الثكلى التي لم تجف دموعها بعد.

قال لنفسه :

" لابد أن أعرف حقيقة ما حدث له.. لابد أن أعرف ما الذي قتله وهو العاقل الذي لم يرتكب أي خطأ طوال حياته.."

استجمع شجاعته وخطا إلى الغرفة لأول مرة.. كانت مثلما تركها تمامًا حتى سريره غير المسوَّى تركته الأم الحزينة كما كان.. والورق المبعثر على المنضدة الصغيرة بجوار السرير كان كما هو.

دخل الأب إلى الغرفة.. ترك دموعه تتساقط وهو يلمس أوراق الابن.. أخذ الأوراق وجلس فوق السرير وأخذ يتفحصها جيدًا لعله يجد فيها سببًا واحدًا مقنعًا لخروجه غير المبرر في تلك الليلة المشئومة.

كانت الأوراق كلها عبارة عن مذكرات يستخدمها للمذاكرة وحسابات غريبة لم يستطع فهمها..

" لكن لابد أن هناك شيء أخر.. لابد أن هناك أوراق أخرى بها كتابات تدل على سبب خروجه في تلك الليلة"

أخذ يحدث نفسه بهذا الكلام .. أخذ يفتش الغرفة بحرص.. كل شبر فيها، أسفل الفراش وأسفل الوسائد حتى التسجيل

الكبير الموضوع إلى جوار السرير حاول فتحه بكل الوسائل عله يجد ما يجيب عن تساؤلاته الحزينة.

حتى وجدها.. كراسة قديمة مخبأة بعناية داخل إحدى الوسائد.. كان العنوان المكتوب على غلافها: "من هي؟"

أخذها الأب بلهفة كأنه سيجد ولده بداخلها.. تسارعت نبضات قلبه وهو يفتحها كأنه سيرى ولده ميتًا بداخلها مرة أخرى..

كانت أول صفحة فيها تصف فتاة:

"ليس لها مثيل في الجمال لا يمكن أن تكون من البشر"

هكذا قال عنها في السطر الأول..

كان يصفها وصفًا دقيقًا لدرجة لا يمكن أن تكون من خياله أبدًا ..

" لابد أنه قد رآها حقًا تلك الفتاة الجميلة التي شغلته إلى هذا الحد"

أخذ الأب يردد لنفسه وهو يقرأ كل شيء عن شعرها الأسود الفاحم، وعيونها السوداء شديدة السواد، وشفتيها اللتان تشبهان فاكهة لا مثيل لها في الدنيا، وقوامها اللين الجميل الذي

لم يشاهده من قبل.. وصوتها الناعم الذي يسري في أعـــصابه مثل المخدِّر..

"من هي؟ أنا لا أعرف في القرية أي فتاة تنطبق عليها تلــك المواصفات أبدًا"

أخذ يتمتم لنفسه وهو يعيد قراءة تلك الصفحة متخيلاً كل فتيات القرية الصغيرة التي يعيش فيها.. ولمّا لم يجد أجابة عـــن هذا السؤال.. انتقل إلى الصفحات التالية..

كانت كلها تحكي عن افتتانه بها.. وغرامه الــذي لم يعــد يستطيع كتمانه عن أحد.. لكنّها حذرته من أن يعرف عنـــها أحد شيئًا وإلا... وإلا فلن يراها أبدًا مرة أخرى ..

" متى كان يراها إذن.. لقد كان ملتزمًا جدًا لا يـــذهب إلي أي مكان سوى مدرسته الثانوية وبعض الدروس الخـــصوصية على أطراف القرية.. صحيح أنه يتأخر في هذه الدروس إلى مـــا بعد صلاه العشاء وهي منطقه متطرفة وبعيده عن العمران ولكنه رجل وشاب عاقل وكل الشباب مثله يذهبون إليها ليلاً"

وظلّ السؤال الذي يلح على عقله هو متى وأين رآها ؟

أخذ يسأل نفسه.. ثم انتقل إلى باقي الصفحات..

" إنها تناديني.. كل ليله أسمعها تناديني من هناك بالقرب من الترعة.. صوتها العذب يسحرني وأتمنى أن أخرج إليها.. تنـــادي

باسمي لآتيها ولكني أخاف أن أخرج لها.. أنا جبان جبان، لـــو أحد الشباب مكاني لأنتهز الفرصة وخرج إليها كل ليلة ليتمتع بقربها وجمالها.. ولكني أخاف.. إنها أول حُبٌ في حياتي.. يجب أن أتشجع وأذهب إليها.. سوف أذهب إليها غدًا.. نعم سوف أذهب إليها غدًا ليلاً لأتمتع بقربها.. بصوتها العذب يناديني عـــن قرب.. سوف ألمسها.. للمرة الأولى سوف ألمسها.. ســأجعلها تحسُّ بمدى حبي الجارف لها.. سأذهب بعد أن ينام الجميـــع.. انتظريني يا حبيبتي.. سآتيك غدًا "

كان هذا آخر ما كتبه الابن القتيل في مذكراته، وكان ذلك بتاريخ يسبق تاريخ وفاته بيوم واحد.

"إذن فقد ذهب إليها.. نعم لـــقد ذهب إليها وهي قتلتـــه.. ولكن من هي؟ يجب أن أعثر عليها لأنتقم منها لقتلها ولدي.."

خرج سريعًا من الحجرة وهو يردد ذلك حتى ظن الجميع أنه قد أصيب بالجنون.

أخذ المذكرات وذهب بها إلى مركز الـــشرطة.. إلى أحـــد أقاربه الضباط وقرأ عليه تلك المذكرات.. لكن الضابط لم يقتنع بها وقال له:

"ربما كان كل ذلك من وحي خياله.. وما أدراك أنـــه قـــد ذهب إليها فعلاً..؟ ثم من هي في الأصل؟ لا يوجد في القريـــة

كلها من لها هذه الأوصاف.. ونحن نعرف كل سكان القرية.. فمن تكون هي ولماذا لم يكتب اسمها أبدًا في كل كلامه؟؟.. ولماذا لم يصارحك أو يطلب منك خطبتها له إذا كانت حقيقية؟؟.. وهو وحيدك ويعرف جيدًا أنك لن ترفض له أي طلب.. أم أنك تعتقد انه قد ذهب إليها واعترضه احد أقاربها وقتله ؟"

رد الأب:

" لا أعرف.. إنه لم يكن من نوعية الشباب الطائش الذي يجري وراء علاقات نسائية ولا يجري وراء البنات"

قال الضابط :

" إذن ما الذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأن تلك الفتاة حقيقية وليست من وحي خياله، خاصة أنه لم يذكر اسمها أبدًا ولا توجد في القرية من تشبهها"

ثم أضاف الضابط :

" وكل الشباب الذين ماتوا في نفس المكان سابقًا.. هل جميعهم تورطوا مع تلك الفتاة؟ هل تأتي إلى القرية فقط لقتل شبابها؟ "

لم يستطع الأب الإجابة، لكنه كان مقتنعًا بأن هذه المذكرات وراء مقتل ولده.

أخذ يحاول إقناع قريبه الضابط بكل الطرق حتى قال لــه في النهاية عندما شاهده على وشك الانهيار..:

"سوف نقوم بالتحري عن تلك الفتاة ونحاول أن نعرف من هي"

مضي الرجل وهو يشك في كلام الضابط، لكنه لم يجد نفعًا من الجلوس إليه طوال النهار لمحاوله إقناعه بشيءٍ مجهول، مجـــرد كلام على ورق.

أخذ يتردد بعد ذلك يوميًا على الضابط ليسأله عما أسفرت عنه التحريات لكنه لم يجد شيئًا.. يومًا بعد يوم حتى يأس من أن التحريات سوف تثبت أي شيء كما حدث في كل الحـــوادث الغامضة السابقة.. لا شيء.. وتضيع حياة الشباب بدون أن تجد الشرطة أي أثر للقاتل.. حاول أن يصدق مثل كل أهل القريـــة أن الموضوع كله مجرد سوء حظ، لكنه لم يقتنع فما الذي يجعل أي شاب يذهب إلى الترعة في الليل أو يخرج من مترلـــه أصلاً في الليل والقرية كلها تنام بعد صلاة العشاء بوقت قصير.. فـــلا يوجد فيها ما يغري على السهر .

ذهب للضابط مرة أخرى وخاب ظنُّه مرة أخرى... عاد إلى المترل مهدود الأعصاب دخل إلى حجرة ولده الراحل.. وأخـــذ يتأمل كَمّ الكتب الدينية الموجودة فيها.

" لا يمكن أن يكون قد تورط مع فتاة مـــا مهمـــا كانـــت جميلة.. حتى لو حدث هذا.. كان يمكن أن نتدارك الأمر خاصة وأنه وحيد ونحن نملك المال الوفير، وكان ممكـــن أن يتزوجهـــا على الفور"

أخذ يهز رأسه محاولاً إخراج صورة جسد ولده الممدد على الطريق في انتظار الشرطة..

مد يده وأخذ أحد الكتب ليفتحها لـــــعل القـــراءة في أي شيء تخرج ما في عقله من صور مؤلمة.. لكن ما الذي يخرج من قلبه هذه الصور؟

قرأ عنوان الكتاب.. قصص الأنبياء تأليف الإمام أبي الفـــداء إسماعيل بن كثير..

هذا كتاب مشهور، وهو قد شاهده قبل ذلك عدة مرات.. فتح إحدى صفحات الكتاب بدون ترتيب.. كانت صفحة رقم ٨، أخذ يقرأ عدة أسطر حتى وقع بصره على جملة اســـتوقفته كثيرا جدًا.. أخذ يرددها عده مرات وهو يحاول أن يفهمها.. كانت تقول:

((قالت الملائكة .."أتجعل فيها من يفسد فيهـــا ويـــسفك الدماء" قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن قاله قتادة، وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل

آدم بإلفي عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور))

أخذ يقرأ تلك الجملة مرارًا وعقله يبدو غير قادر على استيعاب كل الأفكار التي تسارعت عليه..

أخذ يقلب في الصفحات التالية حتى وصل إلى صفحه ١٢ وفيها قرأ:

((قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وقال شهر بن حوشب: كان من الجن فلما أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جندًا من الملائكة فقاتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار، وكان إبليس ممن أُسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، فلما أُمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس عنه)) ومكتوب في الهامش: ((رواه ابن جرير وصحح إسناده ابن كثير في تفسير قوله تعالى "إلا إبليس كان من الجن " " الكهف: ٥" وعند آية البقرة، وهو المذهب الذي رجحه المصنف وبعض أهل التفسير وهو الذي تؤيده الآيات والأحاديث إن إبليس من الجن))

أخذ يبحث في باقي الكتاب عن شيء يفسر هذا الكلام فلم يجد ..!

أخذ يفكر في فكره بدت له في البداية مجنونة لكنها في النهاية بدت الفكرة المنطقية الوحيدة الملائمة لكل ما يحدث في القرية..

ماذا لو أن ذلك المكان من الترعة كان مسكونًا بالجن.. إن الكلام الموجود في الكتاب يقول أن الجن قد أجبروا على اللجوء إلى "جزر البحار" أي إلى المياه.. وهذه الترعة ليست صغيرة إنها أكبر ترعة في المحافظة وليست بها أي تيارات مائية فكيف تبتلع كل هؤلاء الشباب إلا إذا كانت مسكونة كما كانت تقول له جدته وهو صغير وتحذره بألا يقترب منها في الليل حتى لا تخطفه... " النداهة " نعم.. إنها هي.. هي التي كانت تناديه كل ليله وتغريه بصوتها العذب وجمالها حتى يأتيها طائعًا..

كان أذان العشاء يؤذن وهو جالس في حجره الولد يفكر.. انتبه على الأذان فقام على الفور، توضأ وأخذ الكتاب ومذكرات ابنه وانطلق إلى الجامع... وبعد أن انتهى من الصلاة وعاد المصلون إلى بيوتهم.. اقترب من شيخ الجامع وكان رجلاً مسنًا تقيًا يحبه الجميع ويصدقونه.. أخذ الكتاب والمذكرات إليه وسأله عن معنى تلك الجمل التي قرأها في الكتاب فقال له الشيخ:

" نعم يا حاج لقد خلق الله سبحانه وتعالي الجن وتوطنوا الأرض قبل آدم عليه السلام وظلوا فيها مدة لا يعلمها إلا الله حتى تقاتلوا قتالاً شديدًا، فأمر الله الملائكة بالنزول إلى الأرض وقتالهم لتصبح صالحة لحياة الإنسان الذي كان في علم الغيب

حتى تلك اللحظة، وقاتلتهم الملائكة مـــدة لا يعلمهـــا إلا الله وقتلت منهم ما قتلت وأسرت منهم من أسرت ويقال أن إبليس لعنه الله عليه كان من رؤساء الجن، فأُسِرَ مع من أُسِر.. أما باقي الجن فقد هربوا.. منهم من هرب إلى البحار وهم مردة الجـــن ومنهم من هرب إلى الجبال والأماكن الخربة الغـــير مأهولـــة.. وهناك حديث رواه مسلم في صحيحه أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان بن داود، يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنًا" أي مـــا يـــشبه القرآن.. وهناك حديث معروف رواه مسلم في صحيحه عن أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد التقى في إحدى سفراته بأحـــد الجن المسلم الذي أخذه إلى مساكنهم في الجبال، ورأى نـــارهم ومساكنهم، واشتكوا له من قلة الطعام فدعا لهم وقال "لكـــم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مـــا يكـــون لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم" وقال الرسول:"فلا تـــستنجوا بها فأنها طعام إخوانكم"

قال الأب :

" ولكن.. معنى هذا أن الإنسان يمكن أن يلتقي بأحد الجـــن في البحار ؟"

رد الشيخ : " لا.. ليس الأمر بهذه السهولة الجن لا يتعرض للإنسان إذا كان وسط مجموعه من البشر إنهم يهربون من طريقنا ولا يتعرضون إلا لمن يقتحم عالمهم مثل أن تذهب إلى الأماكن المهجورة التي يعيشون فيها وحدك ليلا مثلاً.. أو تدخل إلى مكان مسكون بهم دون أن تسمي الله وتلقي عليهم السلام لتتقي شرهم.. إن الجن يكره الإنسان لأنه أخذ مكانه على الأرض، كما أن إبليس تكبّر ورفض إطاعة أمر الله بالسجود لآدم عليه السلام، وهم لا يتورعون عن إيذائنا إذا تطفلنا عليهم"

قال الأب :

" ولماذا لا تكون تلك المنطقة من الترعة.. والتي تختطف كل فتره أحد شبابنا.. لماذا لا تكون مسكونة بإحدى الجنيات؟"

نظر إليه الشيخ وقال له متهربًا من الإجابة :

"كيف ؟ ونحن نمشي من هناك طوال الوقت؟ "

رد الأب :

" ولكنك قلت للتوّ أن الإنسان يمكن أن يصاب بالأذى منهم إذا ذهب إليهم وحده في الليل.. ربما هذا ما حدث مع ولدي وباقي الشباب.. ذهب إليها كل شاب منهم وحده في

إحدى الليالي.. انظر.. لقد وجدت في مذكرات كتبها ولـدي كلامًا يحكي فيه عن فتاة لا مثيل لجمالها بين البشر تناديه كـل ليلة من مكان قريب من المنطقة التي غرق فيها لماذا لا تكون هي "النداهة" التي كانت جداتنا تحذرنا منها"

رد الشيخ:

" ولكن ما قرأناه في الأحاديث أن الجن هربـت إلى البحـار وهذه الترعة أصغر كثيرًا من البحر"

ثم أضاف:

" حتى لو فرضنا أن هذا صحيح.. مـاذا يمكـن أن نفعـل لطردها أو طردهم..؟ لا شيء"

قال الأب وهو يحاول السيطرة على دموعه التي بدأت تنحدر على وجهه:

" لا.. علي الأقل نستطيع تحذير أولادنـا مـن الـذهاب إلى هناك.. لو كنت اعرف لمنعت ولدي من الخـروج لـيلاً .. أو لردمنا تلك الترعة واسترحنا منها"

رد الشيخ :

" القدر لا مـفر منه.. قدر ابنك أن يموت في تلك اللحظة و لم يكن كل حذر الدنيا سيطيل عمره لحظة واحدة بعدها "

قال الأب :

" اعلم ولكن يجب أن نتأكد .. "

قال الشيخ :

" وكيف تتأكد من ذلك "

قال الأب :

" سوف أذهب إليها.. نعم.. سوف اذهب إليها الليلة.."

رد الشيخ : " ألا تخشى أن تفعل معك مثلما فعلت معهم؟ "

قال الأب بسرعة:

" إذن أنت مقتنع مثلي بأنها هناك تنتظر أخذ المزيـد مـن الشباب؟"

رد الشيخ :

" لا لا لا أنا لا أعني ذلك ولكن مهما كان هناك ألا تخشى أن يقتلك كما قتل ولدك وغيره ؟"

قال الأب :

" لا لأني سوف اذهب إلى هناك وأنا أعرف مـسبقًا مـا ينتظرني.. لن أقترب أكثر من اللازم فقط سوف ألقـي نظـرة لأرى من هي .."

قال الشيخ :

" لا لا تفعل هذا أتعرف كم الساعة الآن لقد تأخر الوقت كثيرًا انتظر حتى الصباح "

قال له وهو يسرع بالخروج :

" لا لن أنتظر.. سوف أذهب إليها وأراها وأتأكد منها "

خرج الأب مسرعًا خارج المسجد وجلس الشيخ وحيدًا يفكر فيما سمعه منه ثم قام إلي منزله لينام.

وفي الصباح صحت القرية علي خبر مشئوم آخر.. لقد وجدوا الأب ميتًا في نفس المكان الذي مات فيه ابنه من قبل .. لكنهم وجدوا بجوار الترعة كتاب قصص الأنبياء ومذكرات الابن الغريق.

" الكل يعلم أن تلك المنطقة خطرة .."

" نعم كل عده أيام ننتشل منها غريقا.."

" ومهما نقول للشباب هذا لا يتعظون .."

" بل قل لا يكفون عن النزول إلى الترعة في هذه المنطقة بالذات.."

" لماذا لا يختارون منطقه غيرها ليستحموا أو يصطادوا فيها؟"

" بل قل لماذا يختارون هذا الوقت المتأخر من الليل للنزول إلى الترعة ؟ "

عيون القـط ..

كانت بداية الحدث.. ذات ليلة في جلسة عائليـــة.. أمـــام التليفزيون.. قفزت القطة السيامي.. التي تبلغ من العمر عـــدة أشهر من فوق الأريكة وجرت بأقصى سرعة في أنحاء الحجـــرة وهي تموء بصوت غريب... وظلت تقفز وتجري وهي تغرغـــر بأصوات تشبه زمجرة الكلب حين يغضب ..

قالت الأم موجهة كلامها للأب:

" القطة كبرت.. وتطلب الزواج.. وحرام علينا لو ســـبناها كده.. مش الراجل اللي باعها لك قالك هاتها وهو يتصرف؟"

رد الأب :

"لو فضيت بكره آخر النهار أوديها له "

بعد أسبوع تكرر نفس الموقف.. ونفس الرد.. لكـــن الأم زادت قائلة:

"رمضان قرَّب.. ومش حايكون عندك وقت تـــروح لـــه.. حاول الأسبوع ده توديها"

يوم الجمعه الذي سبق رمضان بثلاثة أيـــام.. خـــرج الأب والأطفال الثلاثة باكرًا جدًا.. وتركوا الأم نائمة.. وعندما عادوا في الحادية عشرة كانت معهم .. مفاجأة .

استيقظت الأم على ضحكات الأطفال وهـــم يلقـــون إلى جوارها على السرير ..قطًا سياميًا هزيلاً وطويلاً.. بني اللون.. أغمق كثيرًا من قطتهم المدللة البيضاء السمينة "سوشي" ولكـــن عيونه شديدة الزرقة كانت تعكس مزيجًا من الخوف والجـــوع والحزن.

قالت الأم :

" إيه ده.. منين ده ؟"

رد الابن الأكبر ضاحكًا :

" اشتريناه من سوق الجمعه.. البياع قال إنه عنده من ثلاث أيام بياكل من أكل العصافير.. عشان كده هزيل وجعان"

خلال الأيام القليلة الباقية على رمضان.. بدا القـــط غريبًـــا ومرتبكًا.. وظل يتشاجر مع القطة ج حتى اعتادا على بعـــضهما البعض.. و اعتادا اللعب معا..

لكن ما نغَّص على الأسرة تلك الأيام.. أن الأم أصيبت بألم شديد في ظهرها.. واضطرت لملازمة الفراش أغلب الوقت.. مما ضيع عليهم متعه دخول شهر رمضان .

وأصيب الأب خلال شهر رمضان بعدة كوابيس.. لم يعـــان منها من قبل.. بدأت في الأسبوع الأول من رمـــضان...حـــين

رأي أنه يمشي في ردهة طويلة بها أبواب كثيرة مغلقة.. ثم وجد نفسه يواجه أحد الأبواب وقد فُتح.. وهناك شخص ما أو شيء ما يقف بالداخل وظهره للباب.. ثم يستدير ببطء ليواجهه.. لكنه قبل أن يراه.. يبدأ الأب في الصراخ حتى توقظه الأم ليصحوثوان وهو يتصبب عرقًا ويصرخ رعبًا.

وفي الأسبوع الثاني من رمضان.. رأى أنه يدخل إلى حمام مجهول.. ثم يُطفئ النور.. وحينما يحاول أن يضيئه من جديد.. يقع على الأرض.. ثم يجد شيئًا ما يسحبه من قدميه ليدخل به إلى الحائط.. حتى لم يتبق منه سوى ذراعاه وصدره ورأسه.. فيبدأ في الصراخ مرة أخرى حتى توقظه الأم ليصحو وهو يتصبب عرقًا.

وفي الأسبوع الثالث.. رأى نفسه مكبلاً.. وأن جسده كله في حالة شلل كامل.. حتى صوته لا يخرج.. ويظل هكذا.. حتى يبدأ في الصراخ.. لتوقظه الأم مرة أخرى.

في تلك الأثناء.. بدأ مستوي الأطفال في المدارس بالهبوط بشكل ملحوظ..حتى أن امتحان الشهر الذي جاء في الأسبوع الثالث من شهر رمضان ..أسفر عن درجات سيئه جدا..لم يسبق أن حصلوا عليها من قبل .

أما الحالة الصحية للأم.. فكانت تسوء.. رغم حرصها علي الراحة الشديدة لمدة أسبوع.. ولما لم تجد تحسنًا في حالتها ذهبت إلى الطبيب.. الذي كتب لها بعض الأدوية.. وبعد الإفطار أخذت حبة واحدة من الدواء.. وبعد ساعتين.. أصابتها حالة من الإعياء.. والرعشة والدوار والعرق الغزير وسرعة ضربات القلب، وأحست أنها على وشك الموت.. ولكن الله تعالى أنقذها.. وحين قرأت تركيبة الدواء.. وجدت من مكوناته الإسبرين الذي تعاني من حساسية مفرطة منه.. وتعجبت لأنها المرة الأولى في حياتها التي تنسي أن تقرأ تركيب الدواء.

والغريب في تلك الأثناء..كان حال القط والذي ظل يموء بطريقة غريبة.. تشبه كثيرًا كلمات الطفل الصغير الذي يقول ماما أو بابا.

وفي الأسبوع الأخير من رمضان.. طلب أحد أصدقاء الابن الأكبر أن يأخذ القط لديه لبعض الوقت.. وفعلاً أخذه لعدة أيام.. وفي هذه الأثناء.. تحسنت حالة الأم قليلاً..كما اختفت الكوابيس قليلاً.. ثم طلب الصديق من الابن أن يعيد إليه القط لأنه باختصار مجنون ويصاب بحالة هياج شديد كل ليلة قبل منتصف الليل بساعة..حتى أنه قد قام بِعَضِّ أخته الكبرى.

وهكذا.. عاد القط مرة أخرى إليهم.. إلا أنه هذه المـــرة لم يكن غريبًا عن المترل ..

وبدأ البرد في الدخول بسرعة.. وكانت حالة الأم قد ساءت مرة أخري واضطرت للنوم على الأريكـــة الخـــشبية معظـــم الوقت.. وكان من سلوك القط الغريب أنه كان يدور في المترل عدة مرات وهو يموء بصوته الغريب.. ثم يأتي إلى الأريكة الـــتي تنام عليها الأم ويقفز إلى حيث تنام أسفل الغطـــاء الثقيـــل.. ليجلس فوق الغطاء ..

وكثيرا ما كانت الأم تترله برفق إلى الأرض أو تطلب مـــن أحد الأطفال أن يأخذه إلى حجرة النوم الخاصة بهم لينام فـــوق الغطاء الثقيل هناك بجوار قطتهم الأصلية.. إلا أنه كـــان دائـــم العودة إلى جوارها بإصرار ممل.

وانتهى رمضان.. وأيام العيد.. وعاد الأولاد إلى المدارس.

وفي أحد الأيام.. بعد مرور أسبوعين تقريبًا علـــى انتـــهاء إجازة العيد... دق جرس الهاتف في مترل الأســـرة.. وكانـــت المتصلة أخت الزوج..كان الوقت ظهرًا.. ولم تتلق أي إجابـــة علي الطرف الأخر.. فتعجبت لأنها تعـــرف أن الأم في حالـــة صحية لا تسمح لها بالخروج.. كما أن الأولاد علـــى وشـــك العودة من المدرسة .

وفي مساء نفس اليوم.. دق جرس الهاتف مــرة أخــرى.. وكانت المتصلة هذه المرة.. والدة الزوجة وأيضًا لم تتلق أي رد من الطرف الأخر .

وفي الليل.. دق الهاتف الجوال للزوج وبعده بفترة وجيــزة دق الهاتف الجوال للزوجة وكان المتصلون أقارب كل طرف.. ولم يرد أحد .

وفي صباح اليوم التالي قام أقارب الزوجين بالاتصال ببعضهم البغض للسؤال عن الزوجين.. وعندها... تأكــد الطرفــان أن هناك شيء ما خطأ قد حدث.. فليس من عــادة الأســرة أن تذهب إلى أي مكان دون أن تترك خبرًا لدى أحد الأســرتين.. كما أن الأولاد في مدارس والوقت شتاء وليس هنــاك مجــال للذهاب إلى أي مكان.. كذلك كانت سيارة الأسرة في مكانها أسفل المترل..

ولما كانت والدة الزوج لديها نسخة من مفتاح الشقة.. فقد أخذت أخت الزوج المفتاح وذهبت إلى هناك.. وظلت تضرب الجرس عدة مرات هي ومن معها من الأقارب ثم قــاموا بفــتح باب الشقة... ودخلوا ليجدوا شيئًا غريبًا.

لم يكن أحد موجودا في المترل.. وكانت أطبــاق الطعــام مازالت على المائدة بها بعض الطعام البارد... كان كل شــيء

ماعدا ذلك مرتبًا تمامًا.. حتى مفاتيح الشقة كانـــت معلقـــة في مكانها..وأحذية الأولاد والأم والأب والمعاطف في مكانها ..

باختصار..كان كل شيء يدل علي أن الأسرة قد رحلـــت بسرعة لم تسمح لها حتى بارتداء ملابسهم .

وبعد إبلاغ الشرطة.. والمعاينة والتحقيـــق.. والبحـــث في المستشفيات.. ومراكز الشرطة... مرت الأيام بـــسرعة دون أن يظهر لهم أي أثر.. حتى القطط لم يظهر لها أثر.

قرر الأقارب اللجوء إلي بعض المشايخ.. كإجراء بـــائس... وشيخًا وراء شيخ.. ويوما وراء يوم.. لم يسفر ذلك عن شيء، حتى كان الشيخ الأخير الذي يشاع عنه أنه "مخاوي" الجن .

دخل إلى المترل بعد مرور عدة أشهر على اختفاء الأسرة... وبدأ في التجول في حجراتها ويطـــلب آخر شيء من الممكن أن يكونوا قد لمسوه قبل اختفائهم.

وأمام المائدة التي كان عليها بقايا الطعام... وضـــع الـــشيخ البخور.. وأخذ يتمتم ببعض الكلمات الغامـــضة.. ثم طلـــب إحضار طفل أو طفلة أقل من سن المدرسة.. وأخرج من أدواته مرآة.. ثم طلب من الطفل أن ينظر في المرآة ويردد وراءه بعض الكلمات والآيات القرآنية ثم يخبره بما يري.. وهنا قال الطفـــل

أنه يرى أمامه أشخاصًا كثيرين طوال القامة يقفون أمامه في المرآة التي تحولت أمام عينيه إلى نافذة مفتوحة.

أمره الشيخ أن يرحب بهم.. ثم يسألهم عن أهل هذا المترل الذي يمسك ببعض ملابسهم التي تحمل رائحتهم.

تغيرت الصورة أمام الطفل.. ليرى أهل المترل في لحظاتهم الأخيرة قبل الاختفاء.. كانوا يجلسون لتناول الطعام.. وهناك قطتان تدوران أسفل المائدة.. يلقون إليهما ببعض الطعام.. وفجأة.. يموء القط بصوت عال.. ويقفز إلى المائدة وهو يرتعد.. ثم يظهر شخص غريب الشكل خارجًا من المرآة المعلقة على الجدار المقابل للمائدة.. وتعقد المفاجأة ألسنة الأسرة.. ويبدأ هذا الشخص في الحديث إلى القط طالبًا منه العودة معه.. لكن القط يرفض.. قائلاً إنه.." قد وجد أخيرا أسرة يمكن أن تحبه وتعطف عليه ويعتبرها أسرته." ويرد الشخص الغريب بأنه يستطيع الاستمرار في إيذاء هذه الأسرة كما فعل منذ أن انتقل للحياة معهم.. وأنه من الأفضل له ولهم أن يعود إلى حيث ينتمي... لكن القط يرفض.. ويصر على الرفض.. فيحذره الشخص الغريب للمرة الأخيرة بأنه سوف يأخذه رغمًا عن إرادته.. لكن القط يذكره بأن الأسرة تعرف الآن من هو وباستطاعتها حمايته بآيات القرآن التي تحفظها..

فيرد الشخص الغريب بأن.. " هذا الكلام قد حسم الأمر.. وأنه لم يعد لديه خيار أخر سوى أن يأخذهم جميعًا إلى حيث لن يستطيع أحد منهم العودة.... أبدًا"

ثم تظلم المرآة في عيون الطفل.. ولا يرى شيئا آخر.

يسود الصمت المكان.. ويبدو كأن الموجودين يحاولون أن يستوعبوا ما حدث أمام أعينهم.. خاصة أن الطفل لم يكن يعلم بوجود قطط في المترل..

لم يفقد أفراد الأسرتين الأمل.. وحتى يومنا هذا.. مازالوا يترددون على قسم الشرطه لمتابعة مسار التحريات.. وما يستجد في قضية... اختفاء أسرة كاملة ..

شبح مترو الأنفاق ..

انطلق جرس منبه الموبايل.. فقطع على مجدي تكملة باقي الحلم المزعج الذي كان يراه.. كان يحلم بأنه يجري في الشارع من بعض الناس، ثم فجأه دخل إلى شارع جانبي ليجده بركة من الوحل الذي يكاد يغطي قدميه، ويجد في يده لوحًا يشبه لوح التزحلق على الجليد والجميع يتسابقون للجري في هذا الوحل.. ليس على أقدامهم بل على بطونهم عن طريق ركوب هذا اللوح والانزلاق على الطين.

في البداية.. حاول أن يجاريهم لكنهم سبقوه لم يكن يعرف الطريقة الصحيحة لعمل ذلك، أحس كأنه مشلول.. لكنه عرف الطريقة.. وبسرعة انبطح على بطنه فوق اللوح وسابقهم بل وسبقهم فعلا.. من شارع إلى آخر ولم يتعب ولا تعب من معه.. حتى جاء الشارع الأخير ولم يستطع سباقهم وتأخر عن الجميع، وقام من نومه وهو مازال يحس بالوحل يمسك أقدامه ويلوث يديه وأقدامه وصدره.

ارتدى ملابسه على عجل ونزل إلى الشارع.. كالعادة كل يوم لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يأكل أي شيء، ولا حتى شرب كوب الشاي الذي يجعله يستطيع أن يفتح عينيه من نوم متقطع طوال الليل.

شاب أسمر البشرة ضعيف البنية إلى حد ما نتيجـــة للفقـــر والمجهود البدني الكبير الذي كان يبذله كل يوم في المواصـــلات والعمل.

أخذ يتخبط في زحام البشر الذين يمرون إلى جواره يوميًـــا.. مشى مسافة طويلة حتى وصل إلى أقرب محطة مترو أنفاق لمترله، رحلة اعتاد عليها يوميًا إلى عمله منذ عدة ســـنوات، لم تعـــد مرهقة كما كانت في البداية، أحيانًا في المترو يقف طوال المسافة إلى العمل وأحيانًا يجلس لبعض الوقت لكن الزحـــام لا يخـــف أبدًا.. في كل محطة يحس أن المترو يكاد ينفجر من كميه البشر التي تدخل إليه ولا أحد يترل منه:

" من قال أن مترو الأنفاق كان مشروعًا فاشلاً ولـــيس لـــه داعي، وإذا كان كل هذا العدد تحت الأرض فمن أين يأتي كل هذا الزحام فوق الأرض ؟" هكذا قال لنفسه

أخذ يفكر وهو يمشي.. إنه لا يختلف عـــن كـــل هـــؤلاء البشر.. كلهم لديهم نفس الإحساس بالظلم وعدم الرضا عـــن حياقم وما وصلوا إليـــه بعـــد عنـــاء المـــذاكرة والدراســـة والامتحانات، لكنهم مع هذا يتحملون كل شيء، ولا يبـــدوا علي أي واحد منهم أنه مهتم بأن يغير حياته إلى الأبد، وكيف يغير حياته بدون مال أو نفوذ أو ثروة قمبط عليه من السماء.

إنه يخشى حتى لو هبطت عليه ثروة من السماء-كأن يكسب المليوني ريال مثلاً- فلن يعرف كيف يستثمرهم ولا حتى كيف يصرفهم.. لأنه لم يعرف أبدًا الطريق إلى الأماكن السياحية المشهورة التي طالما سمع عنها.. لم يذهب أبدًا إلى عاصمه مصر الثانية "شرم الشيخ"، وإذا ذهب فإنه لا يعرف كيف يتصرف هناك بالتأكيد، سوف يسخر منه الناس جميعًا بما في ذلك موظفي الفنادق أو القرى السياحية؛ لأنه لم يولد غنيًّا ولا يعرف كيف يتصرف كأحد الأغنياء، لا يعرف حتى ماذا يأكل هؤلاء الأغنياء ولا ماذا يرتدون... إنه مواطن من الدرجة العاشرة!! مطحون يعمل طوال الشهر مقابل بعض جنيهات ربما يدفعها الأغنياء إلى من يخدمهم في أي مطعم بعد تناولهم لوجبة واحدة.. ابتسم لنفسه وهو يذكر وجبتهج المفضلة أو التي يستطيع تحملها من مرتبه.. إفطاره اليومي الإجباري من الفول والطعمية والتي أصبحت جزء لا يتجزأ من حياته ويومه وروتينه.. لا يعرف حقيقة هل يحبها لأنها رخيصة الثمن ولذيذة أم يجدها لذيذة لأنها رخيصة الثمن:

" ما هذا الذي أقوله لابد أنني مازلت نائمًا، وأحلم بتخريفة جديدة"

أثناء مشواره اليومي أخذ ينظر إلى الفتيات من حوله:

"كلهن جميلات؟ ما هذه الملابس التي يرتدينها؟ كيف تدخل في أجسامهن هذه السراويل الشديدة الضيق ؟ ولماذا لا يرأفون بحالي وحال أمثالي من الشباب الذي تعدى الثلاثين و لم يتزوج بعد لأنه ليس معه المال الكافي ليتزوج؟!!"

أخذ يتفحص كل فتاة تمشي أمامه ويفكر:

" لو أنني أصبح خفيًا لا يراني أحد،ماذا سأفعل مع كل هؤلاء الفتيات الجميلات..؟"

ابتسم لنفسه بحسرة وهو يذكر أنه لم يدخل حتى في تجربة حب فاشلة مع إحداهن يستطيع أن يعيش باقي عمره على ذكرياتها الجميلة.. لم يلمس يد أي فتاة أبدًا من قبل باستثناء والدته المريضة، وأخته الصغيرة.

مرت من أمامه إحدى الفتيات، كانت ترتدي بنطلون جينز شديد الضيق و"بدي" يكشف جزءاً من بطنها التي تبدو بيضاء ناعمة جميلة، اقترب منها قليلاً وأخذ ينظر إلي لحمها الظاهر أمامه وتمنى لو استطاع أن يلمسه.. فما فائده تعريتها لجسدها إذا كان لا يستطيع أن يلمسه، قال لنفسه:

" إنها تدعوني لكي ألمسه بيدي و إلا فلماذا تعريّه؟"

لكنه في النهاية خاف من أن تمتد يده إليها حتى لا يجد نفسه متهما بالتحرش بها في الطريق العام .

ابتسم لنفسه وهو يقول :

" لكنها تهمة لذيذة ليتني اتهم بها كل يوم"

نظر له شخص كان يسير أمامه ولكن في الاتجاه المقابل وقال له ببرود:

" هل تحدث نفسك ؟"

انتبه فعلا إلى أنه كان يحدث نفسه بصوت أعلى قليلاً من الهمس لكنه لم يأبه لذلك فقد اعتاد على أن يفعل هذا مؤخرًا من شده الضغوط النفسية عليه.

مرت من جواره سيارة فارهه سوداء اللون لا يظهر وجه سائقها من خلف الزجاج القاتم وكادت أن تدهسه.. ارتعش جسده وهو يفكر أنها لو كانت قتلته فربما كان صاحبها سيخرج من القضية بسهولة، ويضيع حقه وحق أسرته الذي يشكل هو العائل الأكبر لها فقط؛ لأن صاحب السيارة يبدو عليه أنه من كبار رجال الأعمال، أو حتى ابن أحد الكبار.

في الطريق قابل شابًا يرتدي سروالا واسعا يكاد يقع من علي وسطه حتى أن ملابسه الداخلية الملونة باهظة الثمن كانت تبدو بصورة منفرة.. قال لنفسه :

" ولم لا ..؟ لابد أن والده غني ومشغول بتأمين الأموال له لدرجه لا تجعله يرى ماذا يرتدي ابنه !!.. "

" وما هذه الموضة السخيفة ؟ مـــا الجمـــال في اســـتعراض الملابس الداخلية للشاب أو الفتاة؟؟ هل هذه هـــي "الروشـــة" التي يقولون عنها؟؟."

ابتسم لنفسه مرة أخري عندما تذكر ملابسه المصنوعة مـــن القطن الأبيض التي تحول لونها بفعل طول مدة اســـتخدامها إلى اللون الرمادي الكالح، ماذا سيكون رأي من حوله إذا ما انزلق سرواله لتظهر لهم مثل هذا الشاب ؟

ضحك بصوت عال فنظر إليه بعض الـــشباب المـــارين إلى جواره باستغراب.

قابل في الطريق شيخًا عجوزًا لا يكاد يـــستطيع المـــشي.. منحنٍ إلى درجه أنه يكاد لا يرى الطريق أمامه.. كان يحمل في إحدي يديه عصا من خشب الشجر يستند إليهـــا، وفي يـــده الأخرى علبة من الكارتون بها عدد من المناديل الورقية يبيعهـــا للناس باستعطاف، ربما ليأكل أو يطعم أحد معه.. فكـــر أنـــه أحسن حالاً من هذا الرجل المسكين، الذي لابـــد وأن أولاده قلوبهم من الحجر ليتركوه يفعل هذا في سنه تلـــك، لكنّـــه لم يستطع منع نفسه من الإعجاب به، فهو على الأقل لم يجلس في

أي مكان ليتسول، بل فضّل أن يشقى كل يوم بالعمل ليأكل، لو كان مرتبه به أي فائض لأخرج له راتبًا شهريًا منه بدلاً من أولاده الذين لا يحملون همه.

لكن للأسف مرتبه بالكاد يكفيه هو وأبوه وأمه المريضة وأخته الصغيرة التي مازالت تدرس في المدرسة الثانوية.

سأل نفسه:

" لماذا لا يساعد هذا الرجل أحدًا من الأثرياء الذين نسمع عنهم وعن ثروتهم الخيالية التي يبددونها في أي شيء، فهو لن يحتاج إلا إلى بضعه مئات من الجنيهات شهريًا، ربما يصرفها الأثرياء على كلابهم"

ثم تذكر أنه يشقى طوال الشهر ليأخذ في النهاية بضعة مئات من الجنيهات لا يكفونه وأسرته أبدًا.

شاهد بعد ذلك فتاة تبدو على ملامحها آثار الغنى.. كانت تسحب خلفها كلبًا صغيرًا أبيض اللون، نظر إليه وأخذ يفكر في كل الأفلام التي شاهد فيها بنت الباشا وهي تطعم الكلب أفضل مما يأكل كل من هو أقل منها اجتماعيًا.

خارج محطة المترو شاهد شبابًا وفتيات كل منهم يمسك بيد الآخر في حب وعشق واضح أو ربما يخدعون أنفسهم :

"كيف سيتزوجون وهم في نفس العمر؟ من أين يأتي الشاب بالمال الكافي ليتزوج هذه الأيام؟ سوف يحبون بعضهم البعض لفترة من الوقت ثم تنتهز الفتاة أول فرصة للزواج من أغني شخص يطلبها، لا يهم عمره ولا شكله المهم ماله، والشاب سوف يبحث لنفسه عن امرأة أجنبية لا يهم لو كانت عجوزًا شمطاء، أو مريضة المهم أنه بزواجه منها سوف يستطيع أن يرحل عن هذه البلد، ويعيش حياة أفضل قليلاً من حياته هنا، ويستطيع بعدها أن يعرف أي عدد من الفتيات الجميلات يريد.

عندما كانت أي فتاه صغيره تتزوج من ثري عربي عجوز كنا نقول عنها أنها تبيع جسدها له، ونقول عن والدها أنه قواد يبيعها لمن يدفع الثمن، والآن عندما يفعل الشباب ذلك ماذا نسميه ؟!!"

" لماذا لم أدخل في أي علاقة عاطفية من قبل مع أي فتاة؟، ربما هناك شيء ما في شكلي يدفع الفتيات إلى الهروب مني؟ أو شخصيتي؟!، أنا لا اعرف كيف أقول كلام حب ناعم . ولا أستطيع أن أنظر إلى أي فتاة مباشرة في عينيها فكيف أحب وأمسك بيد أي فتاة وأمام الناس، لا .. لا يمكن أن افعل هذا أبدًا، ربما كُتب عليَّ أن أظل وحيدًا إلى الأبد!!"

دخل إلى محطة مترو كوبري القبة، كل شيء كما هو كل يوم نفس الوجوه النائمة، والعيون المنتفخة من السهر الشاحبة

من قله البروتين في الـــغذاء، أكيد كل هؤلاء الناس متــشابهون على الأقل في الطبقة الاجتماعية التي تسمح لهم بركوب المتـــرو وليس تاكسي أو سيارة ملاكي.

جلس على رصيف المحطة يتابع بنظراته كل من فيهـــا مـــن البشر.. كان يقارن بينهم وبينه، كلهم مثله متعبون.

كانت المحطة مزدحمة كالعادة كل يوم لكنـــه اليـــوم لديـــه إحساس بالتشاؤم والحزن الشديد لم يكن يدري لمـــاذا، بعـــد لحظات جاء القطار واندفع الركاب إلى الأبواب العديـــدة وفي أثناء الزحام نظر إلى عربة السيدات فوجدها أخـــف قلـــيلاً في الزحام عن باقي العربات، فقال في نفسه:

" أليست تلك تفرقه؟ لماذا لا يخصصون عربة للرجال فقـــط كما خصصوا عربة للسيدات فقط؟ "

بعد لحظات استطاع بصعوبة بالغة الوصول إلى باب عربـــة المترو، لكنه ما أن وضع إحدى قدميه داخل العربة حتى أغلـــق الباب عليها دون أن يتمكن من الدخول.. وانطلقت صرخات الركاب محاولة تنبيه السائق في العربة الأولى لكنه كان بعيدًا عن أن يري أو يسمع أي شيء .

انطلق المترو في رحلة الموت، أحس مجدي بالخوف الـــشديد وهو يمسك بيده الحاجز فوق العربة التي أخذت قدمه وجزءًا من ساقه.

تمنى لحظتها لو لم يقم من نومه أبدًا في ذلك اليـــوم، أخـــذ يصرخ والمترو يزيد من سرعته، كان جسده يرتعد بشدة والهواء يلفح يده القابضة على العربة، دارت في عقله فكـــرة واحـــدة سخيفة جدًا.. أنه سوف يموت الآن وهو لم يعرف بعد طعمًـــا للحياة، كل أحلامه مؤجلة منذ وقت بعيد، حلمـــه في الحـــب والزواج مؤجل حتى يتوفر معه المال الكافي، حلمه بالعمل المريح الممتع مؤجل حتى يجد فرصه عمل تناسب طموحه وشخصيته. حلمه بالسفر إلى الخارج مؤجل حتى يجد المال الكافي لذلك .. حتى حلمه في أن يرسل والدته إلى الحج أو العمرة كان مـــؤجلاً حتى تتحسن حالته المادية . أخذت فكره حياته المؤجلة تدور في رأسه.. لحظات.. وارتطمت ساقه الحرة برصيف المحطة.. تـــألم بشده وهو يسمع صوت تكسر عظام تلك الساق ..وانزلقـــت يده التي تمسك بالحاجز أعلى العربة فوقع أسفل القطار.

وانتهى الأمر أسفل عجلات القطار الذي اختـــار وبكـــل سهولة في تلك اللحظة المشئومة أن يدوس سنوات عمره القليلة التي لم تتعد الثلاثين إلا بقليل.

لم ينتبه السائق ولا ركاب العربات الأخرى إلى الجريمة التي ارتكبوها في حق شخص كل خطئه أنه كان يقف خلفهم و لم يستطع اللحاق بالقطار في الوقت المناسب.

انتبه بعض الركاب الواقفين على المحطة لما يبدو وكأنه أشلاء إنسان.. تعالت صرخات النساء، ووقف الرجال في ذهول بينما تتعالى صيحاتهم وتساؤلاتهم من أين جاءت تلك الجثة ؟ ومن هو هذا الشاب الذي لم يره أحد؟ وكيف لم يره احد وهو يقع أسفل عجلات القطار ؟..

بعد عدة دقائق.. جاء أمن المترو ببعض القماش وغطوه بها حتى تأتي الشرطة للتحقيق في ملابسات الحادث البشع.. وبعد عدة ساعات أخري من الانتظار والمباحثات مع سيارات الإسعاف التي رفضت بالطبع حمله إلى المشرحة وبعد البحث في جيوبه أو ما تبقي منها حتى يجدوا أي شيء يدلهم على هويته.. لم يجدوا معه سوي تليفونه المحمول وبه القليل من الأرقام :

" واضح أنه لم يكن لديه أصدقاء "

كانت ملاحظة سخيفة علق بها أحد الموجودين، نظر إليه من في المكان بغضب، فرد قائلاً :

" انظروا إلى عدد الأرقام القليلة الموجودة في موبايله"

ترك أفراد الشرطة الجثة التي غطاها عمال محطة المترو ببعض القماش. تركوها ملقاة هناك لمده طويلة.. أكثر من ثلاث ساعات والجثة ملقاة على الرصيف، حتى تأتي سيارة الإسعاف لتحمله بينما الضابط "عصام" يستجوب بعض الشهود، لم يبد أن أحدًا من الشهود قد لاحظ وجوده نهائيًا ذلك اليوم:

"يبدو أنه كان من النوع الذي لا يلاحظ أحد وجوده من غيابه"

هكذا علق الضابط بسخرية بعد أن استجوب تقريبا كل الركاب الموجودين على رصيف المحطة في ذلك الوقت وأجمع الكل على عدم ملاحظتهم لوجوده.

اتصل الضابط بالرقم الذي كتب عليه البيت وأبلغ والده بما حدث، فهب مذعورًا يرتدي ملابسه على عجل علّه ينقذ ولده الذي أبلغوه أنه قد مات بالفعل منذ عدة ساعات.

بعد دقائق.. وصل الوالد المذعور ليجد أن أسوأ مخاوفه قد تحقق وأن ابنه الوحيد وعائل الأسرة الأساسي قد انتهى .

بعد عدة ساعات انتهى اليوم بالنسبة لمجدي في بعض القماش الأبيض اللون انتظارًا لدفنه في أي مقبرة خالية من مقابر أقارب الأسرة لأن والده لم يخطط جيدًا لوجود مثل ذلك اليوم في حياته وكأن الموت كان بعيدًا عنهم !!.

في المساء تقبلت الأسرة العزاء في ابنها الذي كان في مثـل ذلك الوقت من ليلة أمس جالسًا معهم يشرب الشاي بالحليب، ويضحك مع والدته قائلاً إنه لن يتزوج حتى يدخر من مرتبـه عشرين ألف جنيه على الأقل في خمسين عامٍ من العمل المتواصل دون أن يصرف من مرتبه أي شيء.

في صباح اليوم التالي انطلق جرس الموبايل ليعلن عن موعـد العمل الذي لن يذهب إليه مجدي بعد ذلك أبدًا.

كل ما حدث سابقًا لم يؤثر في مخيلة أيـًا من ركاب المترو في تلك المحطة لكن ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالكابوس.

بعد عدة أيام كانت إحدى الفتيات في طريقها إلى عملـها كالمعتاد في الصباح.. كانت ترتدي ثيابًا حديثة ضيقة.. بنطلون جيتر شديد الضيق وبدي يكشف جزءًا من ذراعيها وصدرها.. حين لاحظت فجأة شخصًا ما يجلس في نهاية العربة المخصـصة للسيدات، ينظر إليها بعيون حمراء وكأنه مخـدر أو غـير واعٍ، ارتعشت أوصالها من شكل عينيه المليئتان بالدماء، وقامت على الفور لأقرب باب وكانت المحطة قد اقتربت فنزلت من العربـة ونظرت إليه لتتأكد إذا كان قد تبعها أم لا.. فوجدتـه مـازال يجلس في عربة السيدات ينظر إليها حتى أغلق البـاب عليـه، فتنفست براحة كبيرة وقررت أن تستقل المترو القادم، لكنها ما

أن ذهبت لتجلس على كرسي استراحة المترو حتى وجدته أمامها ينظر إليها بنفس العيون الدامية، صرخت بذعر عندما اقترب منها وحاول لمسها.. وعلى الفور توجهت لأقرب ضابط من أمن المترو لتبلغ عنه :

"إنه هناك.. كان يقترب مني، كان يحاول أن يحتك بي وربما كان يريد خطف حقيبتي، عيونه الحمراء تبدو وكأنها مليئة بالدماء .."

حاول الضابط تهدئتها قليلاً ليفهم منها فقال لها :

" هل تستطيعي أن تصفي لي هذا الشخص"

قالت : " لا.. تعال معي لتقبض عليه فورًا "

وعندما أسرع الضابط معها إلى المكان الذي كانت فيه لم يجدا سوى بعض السيدات فقال لها :

" أين هو.. هل تستطيعي وصفه لي الآن؟"

قالت:"إنه شاب ضعيف البنية أسمر البشرة عيونه تكاد تقطر دمًا"

فسأل الضابط السيدات عن هذا الشخص لكن ولدهشتهما لم يبد أن أحداً قد شاهده في ذلك اليوم .

بعد عدة أيام كانت فتاة أخري تقف في انتظار المترو وأثناء ركوبها لاحظت وجود شاب خلفها مباشره يحاول الالتصاق بها

وجذبها من ملابسها الخفيفة العارية.. كان يبدو وكأنه يريد أن يقبلها لكنها صرخت وخرجت بسرعة من الزحـــام وذهبـــت لأحد ضباط أمن المترو في نفس المحطة تشكو وقد أصابها الذعر الشديد:

"كنت أحاول ركوب العربة في المترو لكن أحسست فجأة بأحد الشباب يجذبني بشدة ناحيته ويحاول تقبيلي لكني أسرعت بدفعه بقوة ج، وأتيت إليك لأشكو"

سألها الضابط : "هل تستطيعين وصفه؟"

قالت : " إنه شاب أسمر البشرة، نحيل الجسد لكـــن عيونـــه كانت حمراء لدرجه كبيرة، حتى كأن الـــدماء علـــى وشـــك الاندفاع منها "

وعندما توجه معها إلى المكان الذي أشارت إليه بـــالطبع لم يجدا أحدًا .

بعد عدة أيام اتجه إلى ضابط الأمن شاب يبدو من شـــباب الجامعة، كان يرتدي ملابس شبابية ملفته للنظر عبارة عـــن تي شيرت ضيق جدًا يظهر جسده وعضلاته المفتولة.. كان يلهث و يبدو أنه قد جري مسافة غير قصيرة في مطاردة.. يشكو من وجود شاب ضعيف البنية له نظرات غريبة يحاول قتله.. كـــان الشاب يقف في انتظار المترو وفوجئ بمن يحتك به ويجذبه مـــن

التي شيرت ثم يحاول قتله عن طريق دفعه ناحية عجلات القطار قال للضابط :

" كنت أقف في انتظار القطار وفجأة وجدت شخصًا ما يدفعني من كتفي كأنه يريد الشجار معي، وعندما نظرت إليه وجدته شاب أسمر نحيل الجسم، فدفعته بدوري حتى يبتعد عني لكنه كان قويًا بدرجة كبيرة.. ربما أقوى مني وعندما نظرت إليه وجدت عينيه كأنهما تترفان دمًا.. حاولت أن ابتعد عنه، لكنه كان يلاحقني في كل مكان، حتى وجدته فجأة يحاول دفعي أسفل عجلات القطار عندما كان القطار على وشك دخول المحطة.. أسرعت بالجري منه حتى جئت إلى هنا"

وعندما اتجه معه ليراه لم يجده بالطبع.

بعد يوم واحد فقط جاء شاب يرتدي بنطلونًا مقطوعًا من فوق الركبة وما تحتها.. يكاد يقع من فوق وسطه.. يكشف ما تحته من ملابس داخلية وتي شيرت مفتوح حتى منتصف صدره بكم قصير للغاية يظهر عضلات غير طبيعية تبدو كأنها منفوخة أو مصنوعة من الرخام يصرخ للضابط :

" إنه.. إنه يريد قتلي.. لقد حاول أن يجذب البنطلون من خصري وعندما حاولت منعه دفعني بقوه إلى القضبان حتى كدت أن أقع أسفل القطار.. إنه اقوي مما كنت أتصور رغم ضعف جسده الواضح . لكن عيونه .. عيونه مليئة بالدماء"

أخذ الضابط يهدئ من روعه حتى يستطيع أن يفهم منه ما يقول، لكنه كان خائفًا لدرجة كبيرة.

تكررت تلك الحوادث بدرجة مثيرة للشكوك فمع كل رحلة للقطار كانت الشكاوى عن شخص ما بعيون تملؤها الدماء تتكرر مع كل الناس شبابًا وفتيات، نساءً ورجالاً وكأن هناك من يريد أن يفزع الناس بدون سبب وكلها حوادث تكررت في نفس المحطة محطة"كوبري القبة".

انتهت كل التحقيقات في هذه القضايا إلى لا شيء بالطبع فلم يكن هناك أحد يري ذلك الشاب إلا من يشكو منه فقط، وكأنه شبح لا يظهر إلا لعدد محدود من الضحايا فقط!!

كان الضابط المسئول عن تلك التحقيقات هو الضابط "عصام".. في البداية تعامل عصام مع الأمر كأي قضية غامضة يقابلها رجال الشرطة، لكن بعد تكرار الشكوى من اختفاء هذا الشخص تمامًا بحيث لا يراه إلا من يشكو فقط لفت ذلك نظر الضابط عصام، والذي كان يحقق منذ عدة أيام في مقتل الشاب مجدي في نفس المنطقة.

كانت أوصاف هذا الشخص الذي أجمع كل صاحب شكوى عليها تتطابق تمامًا معه هو.. مجدي القتيل.

لم يكن عصام يستطيع بالطبع أن يربط بين مقتل مجدي وبين ظهور ذلك الشخص الذي يثير الذعر لدى الركاب في تلـــك المحطة في بداية الأمر.. فقبل كل شيء هـــو شـــخص مثقـــف ومسئول، ولا يصح منه أن يتحدث عن أشباح أو "عفاريـــت" القتلى التي تظهر لتنتقم من الأشخاص الذين ترى أهم الـــسبب في مقتلهم!

لكن كان هناك شيءٌ ما يدفعه بقوة إلى التحقيق أكثـــر في قضية مقتل مجدي، لعله يصل إلى رابط بـــين القـــضيتين نظـــرًا للغموض الكبير الذي كان يلف تلك القضايا، ولأها قد وقعت كلها في نفس المنطقة محطة مترو أنفاق كوبري القبة.

توجه "عصام" إلى مترل والد مجدي وهو يعرف مقـــدمًا أن ما يفعله سيكون سببًا في إيلام تلك الأسرة التي لم تتعافَ بعد من جرحها لمقتل ولدها بتلك البشاعة.

انتفض والد مجدي عندما فتح الباب ليجد الضابط عـــصام أمامه.

سأله على الفور : " ماذا ؟ ماذا تريد منا الآن؟"

رد عصام : " بعض الأسئلة عن القتيل، أقصد المرحوم"

رد الوالد :" هل هناك أي شبهة جنائية في مقتل ولدي؟"

قال عصام : " لا ليس هذا ما أريد أن أتحدث معك فيه، أنا أريد أن أعرف المرحوم أكثـــر .. شخـــصيته .. تـــصرفاته .. أحلامه.. كل شيء عنه"

قال الوالد : " إن غرفته كما هي منذ الحادث لم أستطع أنا ووالدته دخولها بعد..حتى أخته لم تدخلها حتى الآن. وكأننـــا نخشى أن ندخلها لنجد رائحته فيها فتذكرنا بما حدث"

ثم أضاف وهي يمسح دموعه :

" لم يأخذ بعد نصيبه من الدنيا.. لم يتزوج.. بل لم يـــدخل في أي علاقة عاطفية مع أي فتاة من قبل.. كان يحـــاول ســـد عجز الفقر الذي نحيا فيه بعد خروجي للمعاش المبكر بعد بيـــع المصنع الذي كنت أعمل به، والمال الذي أخذته مـــن المـــصنع بالكاد كان يكفي لعمليه جراحيه عاجله لولدته في عينيها فهي مريضة بالسكر منذ وقت طويل، وقد أثر ذلك على عينيهـــا.. وبالطبع كان المعاش لا يكفي لأي شيء"

قال الضابط: "ألم يكن لك دخل أضافي، أو لم تبحث عـــن عمل آخر بعد المعاش المبكر ؟"

قال الوالد : "عمل آخر؟ وهل يوجد أي عمل يقبلنا بعد أن لـــفظتنا مصانعنا التي ضيعنا عمرنا بها ؟ ثم إنني رجلٌ مريض لا أحد سيمنحني أي عمل"

فكَّر عصام بأسي أن كلامه صحيح، وهذا يعني أن حمل هذه الأسرة كان قد انتقل جزئيًا من الوالد إلى القتيل، مما يعني أنه لم يكن يستطيع أن يفكر في نفسه أو رغباته أو طموحاته أبــدًا. كان يكفيه أن يفكر في همِّ أسرته الصغيرة جدًا والدته المريــضة ووالده العاطل وهو مازال قبل سن الستين .

استأذن عصام الوالد في دخول غرفه مجدي.. وبصعوبة بالغة وافق الأب على الدخول معه إليها .

دخل عصام إلى غرفه مجدي.. لــفت نظره وجود بقع قليلة من الدماء على أرض الغرفة وفوق الــفراش.. نظر إلى والــد مجدي الذي كان ينظر إلى بقع الدماء القليلة بدهــشة. ســأله عصام:

" هل تعرف سبب وجود هذه البقع في الغرفة ؟"

أجاب الوالد : "لا أعرف عنها أي شيء لم تكن موجــودة في يوم مقتل مجدي، سوف اسأل والدته.."

خرج الوالد ليأتي بزوجته لتري ما شاهده في الغرفة .

أخذ عصام يبحث في أوراق مجدي الخاصة علّه يعرف عنــه أي شيء يفيده في التحقيقات الغريبة، لكنه لم يجــد في تلــك الأوراق أي دليل علي أي شيء، ولم يكن هو نفسه يعــرف

عما يبحث في تلك الأوراق. لكنه في النهاية وجــد مذكراتــه الخاصة في نفس اللحظة التي دخل فيها الأب وزوجته إلى الغرفة فدسها بصورة تلقائية في جيبه بدون أن يلاحظوه .

أصيبت الأم بنوبة من البكاء الشديد عندما دخلت إلى الغرفة للمرة الأولى لكنها سرعان ما أصيبت بالدهشة لوجود الــدماء على الفراش والأرض، وقالت: "لم تكن هنــاك أي دمــاء في الحجرة يوم الحادث لقد نظفتها بنفسي في صباح ذلك اليوم بعد خروجه من المترل وكانت نظيفة تمامًا"

قال عصام : "سوف أتصل بفريق المعمل الجنائي ليأتي ويرفع الدماء لمعرفه فصيلتها أرجو ألا يلمس أي منكم أي شيء حــتى يأتوا "

خرج الجميع من الغرفة بينما انهمك عــصام في الاتــصال بالفريق.

بعد حوالي الساعة جاء الفريق وتم رفع البصمات عن الفراش وبعض آثار الدماء حتى يتم التعرف على فصيلتها .

في المكتب.. أخذ عصام يقرأ مذكرات مجدي كانت تحمــل مرارة كبيرة . حرمانه من الحب والنساء.. حرمانه من الترفيه.. حرمانه من كل متع الحياة.. كل هذا كان واضحًا في كلماتــه، قال في إحدى الصفحات:

" لماذا اختارني الله فقيرًا ؟ لماذا كتب عليّ أن أحيا محرومًا من كل شيء بينما غيري لديه كل شيء وأكثر مما يحتاج ؟ لو استطعت أن أكون إنسانًا غير مرئي، سوف أجعل كل هؤلاء يدفعون ثمن فقري ومعاناتي كاملاً"

كانت كلماته كلها تدور حول معنى واحد.. أنه يريد أن ينتقم ممن يعتبرهم السبب وراء معاناته في هذه الدنيا.

بعد يومين جاءت النتيجة بأن الدماء من نفس فصيلة دماء مجدي! كان هذا مذهلاً.. كيف وصلت دماء مجدي إلى ذلك المكان بعد وفاته ؟

أخذ عصام يفكر في الأمر لكنه لم يستطع الوصول إلى أي شيء، كيف يمكن أن تصل دماء القتيل إلى منزله بعد وفاته على الرغم من أنه لم يعد أبدًا إلى ذلك المنزل منذ أن خرج منه حيا ذلك الصباح؟؟

فكَّر أنه ربما كان قد جرح نفسه قبل خروجه ذلك الصباح إلى موته المحتوم، لكنه لم يستبعد أن يكون هناك شيء آخر في الموضوع.

توصل بعد طول تفكير إلى شيء واحد، يجب أن يراقب غرفة القتيل بنفسه لمدة ليلة على الأقل، لكن كيف سيقنع والدا

القتيل بالسماح له أن يبيت في الغرفة التي يخشيا مجرد دخولهـا حتى يحافظا على ذكرى ولدهما ؟

هداه تفكيره إلى أن يخترع أي قصة ملفقة لهمـا لكنـه في النهاية قرر أن يقول لهما إنه يشك في وجود شيء ما وراء مقتل مجدي، وأن وجود الدماء في غرفته دليلٌ على تورط جهة ما في قتله، ولهذا لابد وان يراقب الغرفة بنفسه لمدة ليلة أو عدة ليالٍ.

وافق الأب وهو مذهول مما سمع.

دخل عصام إلى الغرفة في الليلة الأولى وأطفأ النور وجلـس على الكرسي ينتظر شيئًا لا يعرف ما هو، ولكن مرت الليلـة بدون أي شيء يذكر، وحدث ذلك في الليلة التاليـة لكـن في الليلة الثالثة، وبعد أن أيقن عصام من عدم حدوث أي شـيء.. وأنه كان مخطئًا فيما فكر فيه، فجأة وعند حوالي الرابعة صباحًا وجد عصام بعض الضوء يتسلل إلى الغرفة مـن وراء الـستائر الثقيلة التي تغطي باب شرفة مجدي.. انتبـه عـصام إلى ذلـك وبهدوء شديد رفع قدميه من فوق المنضدة القصيرة الـتي كـان يريحهما عليها، ووضعهما على الأرض. بدأ الضوء يزداد شـيئًا فشيئًا حتى اقتحم الغرفة وتشكّل فجأة إلى شكل آدمي.. كـان هو.. مجدي يقف أمامه.. شفافًا.. بعيون تكاد تترف دمًا.. أخذ ينظر إليه في ذهول.. بدون أي شك كان هو لكن كيف؟

انتفض عصام واقفًا مما تسبب في وقوع بعض الصور التي كانت موضوعه فوق المنضدة التي انزل قدميه من فوقها منذ لحظه محدثًا بعض الضوضاء التي أفزعته فزعًا شديدًا .

ثواني وفتح باب الغرفة وأضاء والد مجدي النور فاختفي الشبح مباشرة دون أن يلاحظ الوالد أي شيء!!

عندما نظر والد مجدي إلى الضابط عصام وجده أصفر اللون يلهث من الصدمة فسأله:

" ماذا بك ؟ ماذا حدث هنا ؟ وما هذا الصوت ؟"

رد عصام: " لا.. لا شيء.. مجرد بعض الصور قد سقطت من فوق المنضدة أنا آسف.. سوف أذهب الآن .."

في سيارته أخذ عصام يفكر في ما حدث.. إنه لا يستطيع أن يجد تفسيرًا لذلك. كيف يمكن أن يقول في التحقيقات الرسمية أنه قد شاهد شبح القتيل في غرفة نومه ؟ كيف يفسر لرؤسائه ما حدث؟ كيف يقول أن الحوادث المتفرقة التي عانت منها محطة مترو الأنفاق سببها شبح قتل في نفس المحطة منذ عدة أيام؟

في تلك الليلة لم يستطع أن ينام من تفكيره في الأمر وفي الصباح كان قد اتخذ القرار الذي حسبه كان صائبًا، أن يترك

موضوع تلك القضية تمامًا، ولا يعود للتفيكر فيها لعـــل ذلـــك الشبح يذهب إلى حيث المفروض أن يكون.

ومازالت تلك الحوادث تتكرر حتى الآن في محطة مترو أنفاق كوبري القبة !!

الحلم !!

أراهم... تقريباً كل ليلة... لن يصبحوا أصـدقائي أبـدًا.. هؤلاء البشر في لحظاتهم الأخيرة.. لحظات الموت القاسية الرهيبة التي أعيشها معهم.

بدأ الأمر منذ سنوات طويلة جدًا.. لا أعـرف عـددها.. كنت أرى أحلامًا غريبة.. أصحو من نومي.. فأنـساها علـى الفور.. حتى كان ذلك الحلم الذي لن أنساه أبدًا..كنت أقـف فوق سطح منزلنا أنظر إلى السماء أمامي فوق المدرسة التي تقع أمام المنزل مباشرة.. رأيت طائرة حربية صغيرة الحجم تـصطدم بأسفل طائرة ركاب ضخمة.. نظرت في دهشه وأنا أتوقـع أن أري أنفجارًا ضخما مثلما نرى في الأفلام الأمريكيـة.. لكـن بدلاً من ذلك.. تحطمت الطائرة الصغيرة تمامًـا، وانـشطرت طائرة الركاب قرب المنتصف إلى قسمين.. وتساقط الركـاب والحقائب منها فوق مكان كثيف الأشجار.. ثم تهاوت الطائرة بسرعه بعد ذلك.. وانتهي الحلم وسط صرخات مرعبة تـصدر عن الضحايا.. وعني وأنا أنظر في دهشة إلى ما يحـدث.. فـلا توجد طائرات تمر أمام منزلنا بهذا القرب -فقد كنـت أراهـم أمامي مباشرة بالحجم الطبيعي تقريبًا!!- ولا توجد أمام منزلنـا غابة كثيفة الأشجار .

بعد أسبوع تقريبًا.. قرأت في صحيفة الأخبار هذا الخبر :

"تحطم طائرة عسكرية أمريكية بعد اصطدامها في الجو بطائرة ركاب. ضحايا طائرة الركاب يتساقطون بعد انشطار الطائرة إلى نصفين فوق إحدى الغابات".

بعدها بأيام، حلمت حلمًا آخر..

رأيتها... كانت تبكي بحرقة..كنت أنا هي.. وكان زوجها- الذي هو زوجي- يجرُّها من ذراعها ليدخلها إلى مكان غريب يشبه الحظيرة.. بعد أن تحدث إلى والده..كانت تصرخ وتطلب منه أن يرحمها.. يتركها لتعيش من أجل ابنتها التي تبلغ عدة شهور من العمر وتقول له:

" حرام عليك ..سيبني عشان خاطر بنتي .."

أخذت – المسكينة- تكررها بهستيريا وهي ترى ابنتها للمرة الأخيرة وتسمع صوتها وهي تبكي فزعًا من صراخ أمها التي ستغيب عنها إلى الأبد.. أخذها الزوج إلى حظيرة المنزل.. وهناك.. أطبق يديه على رقبتها ..التي هي رقبتي .. أحسست بالاختناق الشديد ثم..

أظلمت الدنيا في الحلم.. وصحوت على بكائي واختناقي..

وبعد يومين قرأت في الجريدة.. الحادثة بنفس التفاصيل تمامًا: شاب يخنق زوجته في الحظيرة لشكّه في سلوكها..

القتيلة تستعطف زوجها من أجل ابنتها لكنه يخنقها بــدون تردد!!.

مرة أخرى رأيت نفسي في ملابس ســوداء.. أعــود مــن الخارج لأجد حجرة ابني الطالب مغلقة عليه مــن الـداخل.. أخذت أدق الباب في عنف.. لكنه لم يفتح.. أخذت اســتغيث بالجيران الذين قاموا بتحطيم الباب لنجد أبشع منظر يمكــن أن تراه أم.. كان هذا الولد مشنوقًا في مشنقة بدائية الــصنع.. لا يمكن أن تصف الكلمات حجم المأساة ولا المشاعر التي عشتها في تلك اللحظة.. و..

صحوت من نومي على البكاء والصراخ والاختناق .

بعد يومين قرأت في الجريدة خبر انتحار طالــب بالمرحلــة الإعدادية -كان في نفس عمر ولدي وقتها- نتيجة فقر عائلته، وعدم استطاعتهم إعطاؤه الدروس التي يحتاجها!!

بعد فترة.. رأيت نفسي في مترل العائلة الذي يعــيش فيــه عمي وحيدًا.. كان ممتلئًا بالسيدات الــلاتي يرتــدين الــسواد ويتحركن في المترل وأنا معهن.. حتى دخلن إحدى الـــغرف وكانت هناك جثة على الفراش..

في اليوم التالي جاءنا خبر وفاة عمي عبر الهاتف .

بعد فتره رأيت أنني رجل!! تحديدًا طبيب.. وأنني أبكي بحرقة لأن والدي قد توفي بعد مرض طويل.. وما زاد من عذابي أنني كنت أعالجه.. وأحرص على زيارته كل ليلة.. إلا هذه الليلة فقد كنت في المستشفي طوال النهار وأجلت زيارتي له للغد.. لمعرفتي بأن حاله لن تتغير .

عرفت فيما بعد أن والد جارتي قد توفي.. وأن أشد المتأثرين بوفاته كان أخوها الطبيب.. الذي كان يعالجه ويزوره يوميًا ما عدا ليلة وفاته لأنه كان متعبًا من عمله في المستشفي ذلك اليوم!!

حلم آخر غريب جدًا.. رأيت أنني في مكة.. أقف في حجرة وأمامي شباك كبير جدًا يطل مباشرة على الكعبة المشرَّفة.. بجلالها وعظمتها ورهبتها وشموخها.. وكسوتها السوداء الحريرية.. كان المكان خاليًا تقريبًا من الناس.. وكنت أنظر إلى الكعبة وبداخلي إعجاب كبير بها..

ثم وجدت مجموعة من الجنود يرتدون الملابس العسكرية يتسلقون الكعبة ويصعدون إلى سطحها .. ثم أخذوا يخلعون عنها كسوتها..توقعت أن أري بناءً مهيبًا من الحجارة القديمة لكنني بدلاً من ذلك وجدت.. هيكلاً من الخشب الهش بلا حوائط.. مجرد هيكل خشبي فارغ !!..

وقفت أنظر في ذهول إلى ما أرى .. ليس فقط لوجود هذا الهيكل الهش أسفل كسوة الكعبة، بل أيضًا لتجرئ هؤلاء الجنود على تدنيسها دون أن يتدخل أحد ويمنعهم.

في اليوم التالي مباشرة شاهدت في التليفزيون اللحظات المحزنة المخجلة لسقوط بغداد في أيدي الأمريكان.

مرة أخرى.. رأيت نفسي مع زوجي وأولادي في مكان غريب يبدو مثل جزر الكاريبي حيث الشمس ساطعة والجو صاف وجميل.. كنا في مكان سياحي رائع لكن فجأة.. جاءت سفينة ضخمة إلى قلب السوق الذي كنا نقف فيه، وهرع الناس إليها يركبون فيها بالمئات لأن الماء بدأ في الارتفاع بشكل مفاجئ في هذا المكان.. صعدت معهم إلى سطح السفينة.. وأخت أبحث برعب عن أولادي وزوجي وأصرخ بأسمائهم بأعلى صوت وأنا أبكي بشدة حتى وجدتهم .. كان الأمر أشبه بسفينة سيدنا نوح أثناء الطوفان .. كانت المياه ترتفع بسرعة رهيبة.. والناس في أسفل السفينة يصرخون بهستيريا ويتدافعون للصعود على متنها.. لكنها كانت ممتلئة بالفعل .. وارتفع الماء إلى الحد الذي أغرق كل شيءٍ في لحظات !!..

نعم .. كانت تلك هي أمواج التسونامي التي أغرقت جنوب شرق آسيا مخلّفة معها آلاف القتلى والمفقودين .. وقد عشت

لحظات الرعب تلك كأنني معهم فعلاً ..وبعد ساعات عشت مع التليفزيون مشاعر الرعب تلك مرة أخرى، وأنا أشاهد ما يجري في الحقيقة بعد أن شاهدته قبل ساعات في الحلم !!

مرة أخرى شاهدت نفسي في منزلي.. في عمق الليل الهادئ.. مع أولادي.. وفجأة.. كان هناك عدد من الأشخاص يصعدون على الحوائط الخارجية للمنزل وبعض المنازل المجاورة -التي كان من الواضح أنهم يعرفونها جيدًا ويعرفون من بداخلها- كانوا يشبهون الهنود الحمر في الأفلام الأمريكية القديمة.. في يد كل واحدٍ منهم بلطة تلمع تحت ضوء النجوم.. قفزوا إلى داخل البيوت وأخذوا يذبحون الرجال والنساء والأطفال في هدوء عجيب.. وكأنهم قد خططوا لذلك طويلاً.. لم يكونوا يقتلون كل من بالمنزل.. فقط.. بل كل من وضعه حظه العاثر في طريقهم.. ربما ليرعبوا أهل تلك القرية.. انكمشت على نفسي وعلى أولادي من الرعب.. وأنا أشاهد أشلاء الضحايا أمام عيني.. وأخذت أدعو الله أن يبعدهم عنا.. كانوا مجموعة من عشرة أشخاص.. تسلقوا جميعًا حوائط منازل مختلفة في توقيت واحد.. نفّذوا الجريمة بأقصى سرعة.. ثم انسحبوا عائدين إلى الظلام.. بأقصى سرعة أيضًا .

نعم .. كان ذلك هو حادث بني مزار البشع لدرجة الغثيان.

مأساة أخرى عشتها مع الحلــم.. رأيـــت أنـــي أعمـــل بالتلفزيون.. وتم اختطافي من قبل مجموعة من الشباب الذين لا أعرفهم.. أنا وزميلين لي أحدهما يحمل كاميرا الفيديو.. ساقونا إلى مكان يشبه محلاً صغيرًا ذو باب من الصاج.. كان المكـــان خاليًا إلا من مكتب صغير قديم متهالك كنت أقف إلى جواره.. وكان هؤلاء الرجال قد حظروا علينا الحديث تمامًا.. لكنني مع هذا رحت أحدثهم في شجاعة وأنا أقـــول لنفـــسي... ربمـــا يتركوننا إذا أقتنعوا بما أقول أخذت أقول لهم :

" إحنا ماعملناش حاجه لكم عشان تعملوا فينا كده.. إحنا هنا محايدين بنقول وجه نظر الكل .. إحنا بنؤدي واجبنا تجـــاه البلد.. وده شغلنا.. أرجوكم.. فكروا شويه"

لكن الشاب الذي كان يقف أمامي بدا وكأنه لم يفهم كلمة مما أقول.. أجبر زميلي على الركوع على ركبتيه أمـــامي.. ثم بمنتهي برود الأعصاب.. أطلق النار على رأسه مـــن الخلـــف.. أحسست بالرعب.. لكنني واصلت كلامي بشجاعة وقلت له:

" أرجوك. مفيش داعي للعنف ده.. إحنا هنا عـــشانكم.. إحنا هنا عشانكم .. "

لكنه لم يتركني أكمل حديثي.. أطلق النار على جانب رأسي الأيمن.. وانتهي الموقف..

في الصباح.. شاهدت في قناة الجزيرة تقريرًا إخباريًا عن زميلتهم الصحفية في قناة أخرى.. التي تُدعى " أطوار كمال" والتي اختطفها مجهولين مع زميليها.. ووجدُوا مقتولين بالرصاص في ذلك الصباح.. لم يكن هناك أحد معهم في لحظاتهم الأخيرة –سواي- لكنها كانت شجاعة جدًا رحمها الله تعالى ومن معها .

مرة أخرى.. شاهدت رجلاً يرقد في سرير مستشفي وأنا بجواره.. كان يتألم ويتلوى ببطء على الفراش من الألم وكان جانبه الأيمن ينزف دمًا ثم انقلب على جانبه الأيمن ومات!!..

وفي الصباح عرفت أن زوج جارتي قد توفي في المستشفى نتيجة مضاعفات مرض الكبد الذي أصيب به أثناء إجراءه الغسيل الكلوي المتكرر .

أما الحلم الذي أرعبني فعلاً.. فهو أنني رأيت نفسي أركب سيارة ميكروباص.. في الكرسي الثالث وراء السائق.. كنت أجلس في منتصف الكرسي وإلى جواري أناس لا أعرفهم.. وكنا نسير في طريق ذا اتجاهين.. ولكن فجأة.. ظهرت أمامنا سيارة نقل كبيرة بمقطورة.. أذكر جيدًا تفاصيل مقدمتها.. انحرفت بشدة ناحيتنا صرخنا جميعًا في رعب بما فينا سائق

الميكروباص.. لحظات رهيبة مرَّت.. ثقيلة قبل أن نصطدم بها وينتهي الحلم..

كان ذلك أكثر حلم أرعبني فعلا.. لماذا؟ لأنني بحثت في الجرائد عن حادثة مماثله فلم أجد حتى الآن.. ولهذا.. قررت ألا أركب سيارة ميكروباص وأسافر بها في طريق اتجاهين بعد الآن.. إذ ربما كان هذا الحلم ليس لشخص آخر مثل كل الأحلام السابقة... ربما ..!!

المشكلة الحقيقية أنني أعيش الموت مع أناس لا أعرف عنهم شيئًا.. أعيشه كل ليلة.. كل ليلة.. أعيش الموت !!

أنا ..؟

أنا... أعاني من كل هذا وحدي.. كل مرة يموت أحـــدهم وينتهي من الوجود... لكنه أبدًا لا يفارقني.. لا يفارقني حـــتى أحقق له ما يريد.. لماذا أنا ؟ لا أعرف.

منذ أن كنت طفلاً رضيعًا كنت أعاني من هذا.. كما قـــال لي الكثير ممن عاصروا ذلك.. قالوا أنني كنت دائم البكاء أثنـــاء النوم.. وأنني كنت دائمًا أصرخ وأتململ كأني أعاني من أحلام مزعجة.. ولم تكن محاولاتهم تفلح في إخراجي من هذه الحالة، بل كنت أبدو وكأنني لست في نفس الحياة معهم .

وعندما كبرت بعض الشيء.. تطور الأمر معي.. لكـــني لم أكن أعرف كيف أصف ما أشعر به أو ما أراه لأحد.. حـــتى كنت في سن السادسة وتوفيت جدتي التي كنت أحبها كـــثيرًا فجأة.. لم أكن أعرف ما هو الموت حتى تلك اللحظـــة لكـــني فهمت:

" الموت أن تفقد شخصًا ما للأبد ولا تراه ثانية إلا عنـــدما تذهب إليه".. أو هكذا قالوا لي.. لكن لم يكن هـــذا الـــذي حدث معي.. بعد عدة أيام رأيتها.. رأيتها مرة أخرى.. كانت تمشي أمامي في الصالة.. بنفس ملابسها التي اعتدت أن أراها بها في آخر أيامها.. كانت تنظر لي في أول الأمـــر فقـــط.. ثم في المرات التي تلت ذلك بدأت بالحديث معي .. لم يكـــن ذلـــك حلمًا لأني لم أكن نائمًا.. كان الوقت متأخرًا نعم.. والجميـــع نيام نعم.. لكني كنت أتظاهر بالنوم واختبئ تحت الغطاء الثقيل

من البرد والخوف والأحلام المزعجة.. رأيت شبحها يسير أمام باب حجرتي.. ثم توقّفت عند الباب وبدأت تنـــاديني بـــصوت منخفض:

" أيمن .. أيمن .."

.. أخرجت رأسي ونظرت إليها وأنا أتعجـــب.. كيـــف ماتت وهي أمامي الآن.. ثم أشارت لي حتى أخرج معهـــا إلى الخارج.. لكني لم أفعل.. خفت..خفت أن تأخذني معهـــا إلى المجهول.. إلى الموت الذي لا أعرف ما هو حتى هذه اللحظة..

في الصباح.. حاولت أن أحكي لوالدتي لكنها أغلقت فمي بيدها في رعب وقالت لي:

" لا.. لا تقل هذا لأحد، لقد ماتت والميت لا يعود أبدًا.. "

حاولت أن أفهمها أنها ماتت ولكنـــها تعـــود.. تعـــود لي وتريدني أن أتبعها لكن الخوف ازداد بداخلها، وازداد إصرارها على أن هذا حلم أو كابوس مزعج، لابد أن أقرأ القرآن الـــذي أحفظه كله قبل نومي حتى يتركني.

تكرر ذلك الموقف عدة ليال لم يكن كل القـــرآن الـــذي احفظه يجعلها تتركني، ولا كل الرعب الذي أحس بـــه.. ولا كل العرق البارد الذي يغسلني... لم تكن تريد أن تتركني.. حتى

قررت في النهاية أن أتبعها لعنها ترحل عني إلى عالمها المجهـــول الذي ذهبت إليه.

في تلك الليلة انتظرتها.. حتى أتت.. بنفس الأحداث وقفت على باب الغرفة وأشارت إليّ أن أتبعها.. قمت مـــن فراشـــي وتبعتها.. من الصالة إلى المطبخ.. حيث توقفت أمامي وأشارت إلى أحد الأدراج وهي تنظر لي.. فهمت من إشارتها أنها تريدني أن أفتحه.. لكني خفت وهربت منها إلى فراشي اختبئ أســـفل الغطاء.. م تدخل غرفتي أبدًا.. فقط وقفت أمام البـــاب وهـــي تنظر إليّ نظرات حزينة ثم مضت.. حكيت لأمي مرة أخرى ما حدث لكنها ازدادت خوفًا وقلقًا، ورغبة في أن أصـــمت وألا أتحدث عن ذلك أمام أحد من الناس حـــتى لا يتـــهمني أحـــد بالجنون.

لكنها في الليالي التالية كانت تعود.. وتنتظر أن أقوم معهـــا وأنا.. لم أكن أفعل.. حتى دخلت والدتي لتوقظني ذات صـــباح فوجدت أسفل فراشي كمية من السمن.. نعم كمية من السمن الذي يشبه الماء الأصفر.. مسكوبًا أسفل الفـــراش، صـــرخت والدتي من الدهشة عندما شاهدت ذلك وسألتني وهي تصرخ :

" من أين أتت ؟ ماذا فعلت في الليل ؟ من أين أتيت بها ؟ "

أخذت أمي تصرخ.. قلت لها إنني لم أكن أعلم شيئًا عن تلك المادة بل لم أكن أعلم أصلاً أين يحتفظون بها.. لكنَّها قالت لي إنها في المطبخ، ثم أسرعت إلى المطبخ لترى أثر الكارثة التي قمت بها، ولدهشتها وجدت كل شيءٍ سليمًا.. لم يكن هناك أثر لأي كارثة.. لا شيء مكسور ولا شيء مسكوب.. لم نفهم ما الذي حدث ولا من أين أتت كل تلك الكمية من السمن أسفل فراشي الفارغ ..

في تلك الليلة نامت أمي إلى جواري.. ربما لتقبض عليَّ عندما أقوم مرة أخرى بأي عمل تخريبي في الغرفة.. لكن لم تأت جدتي إليَّ.. انتظرتها طويلاً لكنها لم تأت.. قمت أبحث عنها.. نفضت الخوف عني، وقمت أبحث عنها دخلت المطبخ مرجة أخرى وذهبت إلى الدرج الذي أشارت إليه لكي أفتحه.. كانت أمي قد أحست بقيامي وجاءت ورائي لترى ماذا أفعل، أشرت إلى الدرج وقلت لها :

" لقد طلبت مني أن أفتحه.. لكني خفت.. افتحيه أنت"

نظرت لي بدهشة وقامت بفتح الدرج.. كان كل ما فيه بعض الأشياء المهملة التي لم تكن جدتي عادة تتخلص منها إلى القمامة بل تتركها فقط في ذلك الدرج.. بدأت أمي في البحث داخله.. وقامت بإخراج معظم ما فيه.. كانت أشياءً تافهة،

ملاعق صدئة، فرش أسنان قديمة، مسامير.. أشياء ليس لهـا أي قيمة، لكن فجأة تسمرت يد أمي على شيء ما بداخل الدرج.. الدرج الذي يقع فوق مخزن السمن مباشرة.. كانت علبة غريبة الشكل صغيرة.. في حجم الكف عندما فتحتها وجدت بداخلها مفاجأة.. دفتر توفير باسم جدتي به عدة آلاف من الجنيهات لم يكن أحد يعلم أبدًا بوجوده.. لم تكن هناك أي أشارة في كلام جدتي أبدًا إليه.. لم تقل لأي شخص أنه موجود.. وكان من الممكن ألا ينتبه إليه أي شخص أبدًا أو على أسوأ الظروف يلقى في القمامة إذا ما قررت أمي مثلاً تنظيف المكان..

نظرت لي أمي يومها نظرة يملؤها الخوف..وسألتني:

"أيمن.. هل قالت لك جدتك شيئًا عن هذا الدفتر من قبل؟"

أجبتها بالنفي وقلت لها:

" لا أنت تعرفين جدتي.. لم تكن لتحدثني عن أشيائها المهمة فأنا أصغر من أن تقول لي ذلك"

كانت تعرف أني محق فيما أقول، لكنها لم تكن تريد أن تصدق ما حكيته لها عن جدتي وعودتها ومتابعتي لها .

كبرت قليلاً.. وكبرت معي أحلامي القلقة المرعبة.. كنت أرى أناسًا لا أعرفهم يأتون إليّ، يهمسون في أذني أحيانًا بأسرار

لهم أو يطلبون مني أن أقوم بعمل شيء معين.. أو أن أقول شيئًا ما لأحد الأشخاص، وعندما كنت أحكي لأمي كان الخــوف يتمكن منها كثيرًا .

أحيانًا كنت أرى شخصًا ما يمشي أمامي.. يتجه نــاحيتي.. ثم يتوقف عند باب غرفتي ويشير إليّ لكي أخرج له، تمامًا مثلما فعلت جدتي، ثم يهمس في أذني بأي شيء.. اسم شخص مثلاً.. أو رقم معين.. أو عنوان.. وبعد فترة أجد جريمة قتل منــشورة في الصحف تحمل نفس الاسم أو الرقم أو العنوان الذي سمعته، وأحيانًا أخرى لم أكن أعرف شيئًا على الإطلاق عما يتحدثون عنه..

ماذا يريدون مني؟ لا أعرف... لماذا أنا ؟ لا أعرف.. وكيف يمكنني أن أساعدهم ؟ لا أعرف.. أسئلة كثيرة سألتها لنفــسي و لم أجد لها أجابة.

تعلمت.. بعد فترة من الرعب.. أن أتجاهلهم.. أتجاهــل أي إشارة أو حلم أو صوت أو مجرد خاطر في ذهني، رغم أني كنت أراهم دائمًا.. أناس لا تربطني بهم أي صلة فقــط يــأتون إليّ ويطلبون مني أن اتبعهم إلى أماكن مجهولة.. لكني كنت دائمًــا اختبئ أسفل غطائي وأتجاهلهم .

كبرت أكثر..أصبحت شابًا في العشرينات من عمري اختفى خوفي منهم.. أصبحت أعرفهم وأعرف ما أنا عليه.. اعتدت أن أفكر فيما أنا فيه على أنه موهبة.. شيء نادر جدًا لم يعط لأحدٍ غيري.. فكرت أن ألتحق بكلية الشرطة.. تخيلت: لو أن عندي هذه الموهبة واستخدمتها في هذا المجال.. أنا أرى الأموات.. نعم أراهم وأسمعهم وأتعامل معهم.. ليس هذا فحسب.. بل إني أعرف منهم أهم أسرارهم.. كيف عرفت موهبتي هذه؟ نعم.. عرفتها من قصص كثيرة..جرائم قتل حدثت ونشرتها الصحف لكني عرفتها بعد وقوعها مباشرة قبل أن تتحدث عنها الصحف أو ربما قبل أن تكتشف.. كل مرة كنت أرى فيها الشخص المتوفى يأتي إلى باب غرفتي.. ينظر إليّ.. يناديني أن أتبعه لكني كنت أرفض .. كنت اختبئ أسفل الغطاء الثقيل الذي تعودت أن استعمله صيفًا وشتاءً بدون أي داعٍ وسط دهشة الجميع من شدة الحرارة صيفًا.. لكنهم لم يكونوا يفهمون أني لا أتغطى به إنني اختبئ به منهم.

لكن.. هذه المرة لم يكن يجدي أن أختبئ.. لأن المتوفاة كانت إحدى صديقاتي.. ماتت في حادث سيارة مروِّع...كانت في طريقها إلى المترل ليلاً حينما صدمتها سيارةٌ مسرعة.. لم يعرف أحدٌ رقمها ولا شكلها لأن الوقت كان متأخرًا.. كانت جارتي في المترل وزميلتي في الجامعة.. ربطت

بين أسرتينا علاقات اجتماعية عميقة.. بعد وفاتها بيومين جاءتني.. وقفت خارج الغرفة ..نادتني بصوت هادئ: "أيمن .."

نظرت إليها.. أشارت إليّ.. أن أتبعها إلى الخارج.. فكرت لبعض الوقت.. لكني قررت أن أتبعها فهي صديقتي.. لابد أن لديها سرًا تريدني أن أكشفه.. ذهبت إليها.. ابتسمت لي.. سارت بهدوء إلى حجرة أمي فتبعتها.. دخلنا الحجرة حيث كانت أمي نائمة.. اتجهت مباشرة إلى دولاب الملابس وأشارت إليه كي أفتحه لها.. ترددت قليلاً لكني فتحته.. بأقل قدر من الضوضاء.. حتى لا أوقظ أمي.. بداخل الدولاب كانت حقائب يد أمي.. أشارت إلى واحدة منها ذات لون بني وحجم متوسط.. أشارت إليّ كي أحملها وأفتحها.. وعندما فعلت ذلك أشارت إلى بطانتها وهمست لي أن أخلع تلك البطانة لأجد ما أبحث عنه.. عندما بدأت في خلع بطانة الحقيبة أضاء النور فجأة.. وقعت الحقيبة من يدي على الأرض، كانت أمي قد أحست بي.. ارتسمت على وجهها نظرة رعبٍ وذهول.. وهي تراني أفتش في حقيبة يدها.. ظنت أني أسرقها.. لم يكن يجدي أن أقول لها إنني كنت أتبع صديقتي المقتولة لكي أكشف السر الذي تريدني أن أكشفه للجميع.. نظرت إليها في بلاهة وأنا أفكر كيف أخرج من هذا المأزق.. أنا أمام أحد خيارين: إما أن أكون لصًا أو أن أكون مجنونًا.. فكرت أن أتظاهر بأني

أعاني من داء المشي أثناء النوم لكن الموقف لم يكن يحتمل أي شيء، قررت أن أكون لصًا في نظرها.. قلت لها بصوت منخفض:

"آسف .. كنت أحتاج إلى بعض المال"

قالت :

" لماذا لم تطلب مني، وأنا كنت سأعطي لك ما تريد؟"

قلت: " خفت ألا توافقي"

نظرت إليّ بريبة وأمرتني بالذهاب إلى غرفتي للنوم لنتحدث في الصباح عما حدث.. كان هذا هو ما أريده فعلاً. ذهبت إلي غرفتي لكني لم أستطع النوم.. ليلتها ظللت حتى الصباح مستيقظًا أفكر ماذا كانت صديقتي تريد وأي سرٍ تخفيه أسفل بطانة حقيبة يدها البنية.

في الصباح.. ذهبت إلى والدتها وسألتها إذا كان لدى صديقتي حقيبة يد بينة اللون :" بهذا الحجم ؟"

وأشرت لها بيدي.. أجابت بنعم وقالت:

" ورغم أنها حقيبة قديمة وبالية، إلا أنها كانت مصرة على الاحتفاظ بها داخل دولاب ملابسها "

طلبت منها أن أرى تلك الحقيبة.. نظرت إليّ في دهشة، لم يكن هذا وقتًا مناسبًا لكل ما أفعل.. كانت الأسرة مجروحة في أعز ما تملك.. ابنتها.. أحسست بالسخف الشديد والخوف من أن أبدو أحمقًا أمام الجميع.. لكني صَمَّمتُ على أن أرى تلك الحقيبة وسوف أوضح السبب عندما أراها .

دخلت الأم إلى غرفة ابنتها التي لم يمر على وفاتها أربعة أيام.. عندما فتحت دولاب ملابسها واختفت وراءه.. سمعت صوت بكاءها ونحيبها المكتوم..كان موقفًا سيئًا للغاية.. لكنها بعد تفتيش الدولاب وجدتها.. أخرجتها وأعطتها لي وهي تخبئ عيونها عني ..عيونها التي كانت تتهمني بعدم الإحساس.

فتحت الحقيبة أمامها ومددت يدي إلى البطانة لأنزعها.. وجدت ورقه مطوية بعناية ومخبأة أسفل البطانة.. نظرت لي الأم بلهفة وأنا أخرج الورقة وأفتحها.. اتسعت عيوني من الدهشة.. لم أكن أستطع أن أقول لها كلمة واحدة ..أعطيتها الورقة وانصرفت وأنا أفكر ..

"هبة" النقية البريئة مثل ندي الصبح.. متزوجة عرفيًا وممن؟ من أسوأ طلبة الجامعة.. المعروف بتعدد علاقاته وأخلاقه السيئة.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقي .. ثم بدأت أفكر أكثر.. لماذا أرادت أن تفضح نفسها بعد موتها؟ ربما في الأمر شيء ما..

في تلك الليلة جاءتني مرة أخرى.. باكية.. وقفت بالخـــارج ونادتني.. تبعتها على الفور.. إلى مطبخ المـــترل هـــذه المـــرة.. همست لي وهي تشير إلى أحد أدراج المطبخ :

" افتح "

فتحت الدرج كما طلبـــت مـــني.. أشـــارت إلى إحـــدى السكاكين في الدرج.. أخرجتـــها.. وجـــدتها تقطـــر دمًـــا.. ارتسمت على وجهي ملامح الذهول.. نظرت إلى عيني ولمست حد السكين وهي تبكي.. لا أستطيع أن أقول أنـــني فهمـــت رسالتها لي، لكني ذهبت في اليوم التالي إلى والدتها وسألتها عما فعلت في الورقة التي وجدتها في حقيبة ابنتها سألتني :

" هل كنت تعرف هذا من قبل ؟"

أجبتها بالنفي القاطع :

" لا لم أكن أعرف.. لا أحد كان يعـــرف أو يتخيـــل أن يحدث هذا "

سألتني بحزن هامسة :

" هل تعرفه؟"

بصراحة .. أشفقت عليها مما سأقول لكـــني اســـتجمعت شجاعتي وأجبتها :

" نعم.. للأسف كل الجامعة تعرفه وتعرف أخلاقه السيئة، هبه لم تكن الأولى في قائمته السوداء ولن تكون الأخيرة.. إنه معروف بسوء الأخلاق.. كلما اشتهى فتاة يوقعها في فخِّه، ثم يتركها بعد أن يزهدها أو بعد أن يشتهي غيرها.. دائمًا نفس النهاية المحزنة يقابل فتاة ليترك غيرها .."

بكت الأم وهي تقول لي:

" ولماذا هي؟ لماذا وقعت في فخه ؟ ألم تكن تعلم كل ما حكيت لي الآن ؟ "

قلت : " كلنا كنا نعلم .. "

قالت :" ولكن كيف عرفت بوجود هذه الورقة في حقيبتها؟"

لم أستطع بالطبع أن أقول لها الحقيقة.. فكرت بسرعة في كذبة معقولة أبرر بها ما فعلت قلت:

" كانت دائمًا تتحدث معي عن أوراق مهمة تضعها في حقيبتها البنية"

صدقتني المسكينة، قبل أن أخرج من عندها قلت لها :

" أليس من الأفضل أن تبلغي الشرطة عما وجدناه في الحقيبة؟"

نظرت لي في دهشة وقالت: " وأفضح ابنتي ؟"

قلت :" لا ليس هذا هو المقصود ولكن هـــذا الــشخص لا يتورع عن قتلها إذا رفضت التخلي عنه"

ألقيت إليها تلك القنبلة وانتظرت أن أسمع تعليقها عليهـــا .. مسكينة ألم يكن يكفيها وفاة ابنتها؟ ..

سألتني في لهفة :

" ممكن ؟ يصل إلى حد القتل .. ليتخلص من فتاة "

أجبتها :"نعم .."

تركتها وخرجت وبعد عدة أيام ذهبت إليها لأســألها عـــن الأخبار قالت :

" تحدثنا عن الموضوع مع أحد أقارب والدك وهو ضـــابط شرطة وشاهد الورقة ووعدنا بأن يتحرى عن الأمر"

كنت أهرب من نظرات أمي المتهمة إياي بالسرقة ..وأكثر من ذلك.. بالتورط مع هبة في فضيحتها.. وإلا فكيف كنـــت أعرف بالضبط مكان ورقتها العرفية .

لكني لم يكن يهمني ذلك.. لم يكن يهمني ســـوى إظهـــار الحقيقة.. لم تكن صديقتي تأتيني طوال تلـــك الفتـــرة.. حـــتى جاءتني ذات ليلة بعد عده أيام على آخر لقاء لي مع والـــدها ..

جاءت سعيدة تضحك نظرت لي من خارج الحجرة وابتسمت وهي تشير لي بعلامة النصر .

في الصباح أسرعت إلى والدها وجدتها تبكي بحرقة لكنها احتضنتني عندما شاهدتني وقالت :

" شكرًا .. شكرًا لقد أثبتت التحريات أنه هو، هو الذي قتلها في تلك الليلة.. بعد أن هددت بأن تلجأ إلى المحكمة لإثبات الزواج واثبات......"

وسكتت عن الكلام.. اختنقت الكلمات في حلقها لكني فهمت.. لقد كانت تحمل في أحشائها ثمرة جريمة لم تكن الشريكة الوحيدة فيها ..

لكن الحقيقة وضحت أخيرًا.. وارتاحت صديقتي حتى ولو كانت مخطئة فمن منا لم يخطئ أبدًا.. إننا في النهاية بشر نخطئ ونصيب.

في الأيام التالية.. قررت أن أعود مرة أخرى إلى تجاهل كل الإشارات والأحلام التي تصيبني بالخوف.. قررت أن أتجاهل كل شيء.. لأعود سالمًا إلى غطائي الثقيل..

لكن ما حدث بعد ذلك بسنوات لم يكن من الممكن تجاهله.. تمامًا مثل حالة هبة.

كنا ثلاثة أصدقاء مقربين أنا وخالد وأحمد.. وكنا في طريقنا إلى المصيف في سيارة صديقنا خالد كان يقودها بسرعة وكان الوقت ليلاً..

انقلبت بنا السيارة في الطريق الزراعي.. أفقنا بعد عدة أيام في المستشفي لنعلم الخبر المرعب.. مات صديقنا خالد.. أصابته أحدى شظايا الزجاج في عنقه ومات على الفور.. مات ونحن في غيبوبة من أثر الحادث المروع.. طلب منا الضابط في القسم القريب من مكان الحادث أن نذهب معه إلى المشرحة للتعرف عليه.. خالد.. صديقنا الذي كان منذ عدة أيام يملأ الدنيا معنا سعادة وحياة.. ذهبنا إلى المشرحة.. ذلك المكان المقبض الكئيب الذي يحتوي كل قصص الرعب والخوف والحزن بداخله.. فتح لنا العامل الثلاجة وأخرجه،كانت ترتسم على ملامحه نظرة غضب شديدة.. نظرة غريبة جدًا كأنه كان في معركة قبل وفاته.. أخذت أحاول أن اتذكر آخر كلمات قلناها قبل الحادث لعلها كانت كلمات تسببت في نظرة الغضب تلك على وجهه.. لكني لم اتذكر إلا أننا كنّا نتحدث ونضحك ونحن نتخيل ما سنقوم به من مغامرات في المصيف.

كان وقع الصدمة علينا كبيرًا، حتى أننا لم نفكر في الذهاب إلى مكان السيارة للبحث عما فقدنا من أشياء ثمينة .

بعد خروجي من المستشفى بيومين فوجئت بـــه.. خالـــد.. يمشي في الصالة.. ويتوقف عند باب غرفتي.. نظر إليّ طـــويلاً نظرة عتاب ثم تركني ومضى.. لم يقل أي شيء.

في الليالي التالية.. تكرر ما حدث.. لم يناديني ولم يشر لي أن أتبعه.. مما زاد من غموض الموقف ..فقط ينظر لي نظرات طويلة ويمضي.. حتى كانت إحدى الليالي سمعتـــه ينـــاديني بـــصوت منخفض واهن:

" أيمن .. أيمن "

ظل يكرر النداء عدة مرات حتى صَمَت تمامًا ..

ليلتها لم أنم.. حتى طلعت الشمس وتوجهت إلى صـــديقي أحمد وأخبرته عن كل ما حدث.. فقال لي إنه يشك في أمر ما، وإنه سوف يذهب إلى مكان السيارة ليبحث في حطامها عـــن أي شيء يؤكد شكّه أو يمحوه.. خاصة أنه لم يكن فاقدًا للوعي تمامًا بعد الحادث.. وأنه قد سمع صوت خالد يناديني.. تمامًا كما وصفته له واهنًا منخفضًا.. طلبت منه أن يأتي لينام تلك الليلـــة عندي حتى يرى بنفسه ما أراه أنا..

لم أكن متأكدًا مما سيحدث.. لأنها كانت المرة الأولى الـــتي يشاركني فيها شخص غرفتي باستثناء والدتي ذات يوم.. غرفتي المرعبة التي لا يدخلها الأموات.. في تلك الليلة.. بينمـــا نحـــن

الاثنان نائمان.. سمعته يناديني ويشير إليّ كي أتبعه.. أيقظت أحمد.. لم يكن يراه، فقط تبعني وأنا أذهب خلف خالد.. حتى وصلنا إلى الحمام أشار إليّ أن أفتح صنبور الماء.. بدون أن أفهم فتحته لكني تراجعت للخلف من الرعب.. كان السائل الذي يترل من الصنبور ليس ماءً..كان دمًا..صرخت من المفاجأة.. وأشرت لصديقي أن يقترب ليرى ما أراه.. كانت الدماء غزيرة لدرجة أغرقت ملابسه صرخ هو الآخر من الرعب.. أخذت أحد الأكواب بسرعة وملأته بالدماء المندفعة.. سمعت والدتي صوتنا وجاءت بسرعة لترى ما جعلها تصرخ هي الأخرى.. سمعنا والدي وأسرع إلينا ليرى المفاجأة ويسرع إلى الهاتف ليتصل بقريبه الذي يعمل ضابطًا للشرطة، بعد عدة دقائق جاء إلينا الضابط..كانت الدماء قد توقفت.. لكنه أخذ الكوب الممتلئ بالدماء لتحليله في المعمل.. في تلك الليلة رأيت حلمًا يدور حول رجل طويل له ملامح قاسيه أسمر اللون كان يحوم حولي وأنا نائم على سريري.

بعد يومين جاءت النتيجة.. الدماء من نفس فصيلة دماء صديقنا خالد. أثار هذا الحادث دهشتنا جميعًا.. وقررت أنا وأحمد أن نذهب إلى مكان الحادث وهناك.. حيث كانت السيارة التي شهدت وفاة صديقنا العزيز تقف محطمة الواجهة والسقف.. أخذنا ندور حول السيارة بحثًا عن أي شيء يخفف

من آلامنا لكننا لم نجد شيئًا ذا قيمة.. كان من الواضح أن كل محتويات السيارة قد سرقت حتى نظاراتنا الشمسية الغالية الثمن وساعاتنا الثمينة التي لم نجد لها أي اثر بعد الحادث.. أصبنا بخيبة أمل وتأهبنا لترك المكان حين لفت نظري فجأة وجـــود مـــنزل ريفي غير بعيد عن مكان الحادث ولدهشتي كان يخـــرج منـــه رجل... إنه نفس الرجل.. الذي شاهدته منذ أيام في منـــامي.. الذي كان يحوم حولي.. همست لأحمد:

"إنه هو.. هو من رويت لـــك عنـــه.. الـــشخص الـــذي شاهدتـــه في الحلم"

أشار لي أن أصمت عندما لاحظ أن ذلك الشخص ينظـــر إلينا بغرابة.

ذهبت مباشرة إلي قريب والدي ضابط الشرطة؛ لأطلب منه مراقبه هذا الشخص لشكي في أن له علاقة بما حدث لنا بعـــد الحادث ..

بعد يومين جاءني صوت الضابط عبر الهاتف وهو يطلب مني الحضور فورًا إلى مقر النيابة القريبة من مكـــان الحـــادث أنـــا وصديقي، وعندما ذهبنا إلى هناك وجدنا المفاجأة التي أرعبتنـــا حقًا ...

كان ذلك الشخص الأسمر اللون الطويل يقف أمام ضـــابط القسم.. وأمام الضابط...كانت بعض أشـــيائنا الثمينـــة الـــتي فقدناها أثناء الحادث نظارات الشمس والساعات بل وحافظات النقود والهواتف المحمولة.. كل شيء كان هناك.. حتى تسجيل السيارة.. كل شيء لكن لم تكن تلك هـــي المفاجـــأة الـــتي أرعبتنا.. المفاجأة كانت في اعتراف الرجل الذي قال:

"نعم كان السائق حيًا حين اقتربت من السيارة لسرقتها.. في الحقيقة لم أكن أعرف ذلك حتى بدأت فعلاً في خلع الـــساعات عنهم.. عندها أفاق السائق ونظر إليّ بخوف وبدأ في النداء علي أصدقائه خاصة أيمن.. كان مصابًا.. وكان صـــوته منخفـــضًا وواهنًا وهو يناديهم لكني لم أجد مفر.. لو تركته كان ســـيقوم بالإبلاغ عني وينتهي بي الأمر إلى السجن.. لم يكـــن أمـــامي مفر.. لم يكن سيجدي أن أعتذر له.. أخـــذت قطعـــة مـــن الزجاج المحطم وضربته.. ضربة واحدة فقط في عنقه.. التفـــت إليّ غاضبًا وحاول أن يضربني في وجهي بيده.. لكنني أمسكت بيده بقوه حتى خارت قواه تماما وهو ينزف بغزاره من الجرح.. كأن صنبورا من الدماء قد فتح ولا أحد يـــستطيع إغلاقـــه .. لحظتها.. ندمت اشد الندم علي فعلتي.. لكن.. كان الأوان قد فات علي ذلك ..كان الشاب أمامي يلفظ أنفاسه الأخيرة.. لم يكن أمامي ما افعل إلا أن أسرق كل شيء بسرعة قبل أن تنتبه

باقي السيارات الي الحادث.. تركت المكان بعد أن أخذت كل ما أريد من السيارة ومنهم .. وقررت ألا أحاول بيع أي شيء إلا بعد فتره من الوقت حتى تهدأ الأمور قليلاً وينسى أهل الميت ما حدث.. لم أكن أعلم أن الشرطة سوف تمسك بي بهذه السهولة "

وأخذ يبكي ..

لم أتمالك نفسي من البكاء عندما سمعت هذا.. لقد كان يناديني كي أنقذه من مصيره الذي عرفه في وجه قاتله.. لكني لم أكن واعيًا.. ربما خذلته في تلك اللحظة لكن عن دون قصد.. لكن النتيجة واحدة.. فقد حياته.. مات.. قُتل.. قتله الطمع والخوف وإغماء الأصدقاء ..

بكيت.. وعندما نظرت إلى أحمد وجدته يبكي هو الآخر.. وقرأت في ملامحه نفس ما كان يجول بعقلي من أفكار حزينة.

بعد تلك الحادثة المروعة.. تغيرت.. نعم تغيرت.. قررت ألا أتجاهل كل الإشارات والأحلام والناس الذين يأتون إليّ طالبين المساعدة.. قررت أن اتبعهم إلى حيث يريدون لعلي لا أخذل أحدًا منهم أبدًا بعد الآن .

الفهرس

الكاتبة

علا بركات

بكالوريوس علوم – جامعة الزقازيق ١٩٨٩م

عملت صحفية في:

- أخبار اليوم ــ الدستور

- تكتب سيناريو ..حاليًا

لها تحت الطبع:

- ارحل كما تشاء.. رواية

- العدد القادم:

يوميات طبيب نفسي